جامعة الأزهر

كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

تنوّع التعبير عن أثر فقْد النبي ﷺ في نفس عمتيه صفية وعاتكة رضي الله عنهما بنتي عبد المطلب

The Diversity Of Expression Of The Impact Of The Loss Of The Prophet - Prayer Of God Upon Him- In The Same Aunts Safia And Attika- God's Satisfaction With Them- Daughters Of Abdul Mutalib

إعـــداد

د/ محـروس شحاتـة أحمـد حميـد

مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بقنا

(العـدد الثالـث والأربعـون)

(الإصـدار الرابـع-نوفمبر)

(الجـزء الأول (١٤٤٦هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) *2536- 9083*

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٤/٦٢٧١م

تنوّع التعبير عن أثر فقْد النبي ﷺ في نفس عمتيه صفية وعاتكة ـ رضي الله عنهما ـ بنتي عبد المطلب

محروس شحاتة أحمد حميد

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين، جامعة الأزهر، قنا، مصر.

البريد الإلكتروني: *mahroushemid.4119@azhar.edu.eg*

ملخص البحث

جاء البحث ليكشف عن بلاغة تنوع التعبير التي تحدُث في المعاني التي يصوغها متكلم واحد، أو يشترك فيها اثنان أو أكثر، فيصوغ كل منهما المعنى بطريقة معينة؛ بحيث يصبح لكل منهما أساليبه وجمله وتركيباته الخاصة التي تنطق عن معناه وتكشف عن مغزاه. وقد اتبع البحث منهج الموازنة القائم على الاستقراء والتحليل والانتقاء، فبعد عرض القصائد كاملة؛ يبدأ البحث في اختيار وانتقاء الأبيات التي تدل على تنوع التعبير بين الصحابيتين ـ رضي الله عنهما ـ ، ثم الموازنة بين الأساليب اللاتي عبرت بها كل منهما عن أثر حالة الفقد والرثاء، وملاحظة الفرق في تنوع التعبير عندهما. وقد ظهر اعتماد الصحابيتين على الأسلوب الإنشائي من أمر ونداء واستفهام... ؛ لإبراز أثر الفقْد، ووقْع المصيبة، وللتنفيس على النفس، ونقل كل ما يجول داخلها؛ لعل الدموع تخفّف ما هما فيه من ضيق مقام، وحزن وأسى، فالوقْع شديد على النفس، والحدث جلل، والمصيبة عُظمى. وقد كان للتعليل دوره البارز في إظهار المعنى وعرضه وتجليته في صورة واضحة، فجاء لبيان العلة من البكاء؛ للإشارة إلى منزلة المصطفى ﷺ وإظهار مكانته، ولجعْل البكاء حقا واجبا على رحيل المصطفى ﷺ وتقرير أمر البكاء في النفوس وتأكيده.

الكلمات المفتاحية: تنوّع، التعبير، أثر، فقْد، النبي ﷺ ، صفية، عاتكة.

The Diversity Of Expression Of The Impact Of The Loss Of The Prophet - Prayer Of God Upon Him- In The Same Aunts Safia And Attika- God's Satisfaction With Them- Daughters Of Abdul Mutalib

Mahrous Shehata Ahmed Hamid
Rhetoric and criticism, Faculty of Islamic and Arabic studies for Boys, Al-Azhar University, Qena, Egypt

E-mail: *mahroushemid.4119@azhar.edu.eg*

Abstract:

The research revealed the eloquence of the diversity of expression occurring in the meanings formulated by one speaker, or shared by two or more speakers, each of which is formulated in a particular way; so that they each have their own methods, sentences and compositions that speak for their meaning and reveal their significance. The research followed the extrapolation, analysis and selection-based balancing approach, after the poems were presented in full; Research begins in selecting and selecting verses indicating the diversity of expression between the Saharans- God's satisfaction with them- , then balancing the ways in which each has expressed the impact of their state of loss and lamentation, and observing the difference in their diversity of expression. The dependence of the Saharans on the structural style of order, appeal and question ؛ ...To highlight the impact of loss, the impact of misfortune, the breathing of breath and the transfer of everything within it; Tears may ease the distress, sadness and sorrow in which they are left. The explanation had a prominent role to play in the presentation, presentation and manifestation of the subject in a clear manner, and the explanation of the reason came from tears; To refer to Mustafi's- Prayer of God upon Him- position to demonstrate his stature, and to make crying truly a duty for Mustafi's- Prayer of God upon Him- departure and to decide on the order to cry in souls and confirm it.

Keywords: ***Diversity, Expression, Impact, Loss, Prophet, Prayer Of God Upon Him, Safiya,*** *Atika.*

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على النبي الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، **وبعد**:ـ

فإن الشعر يستمد قيمته وأهميته ومنزلته ومكانته؛ من قدْر الأثر الذي يُبقيه في نفوس متلقيه، ولا شك أن الشعر عندما يتلمّس حاجات النفس، ويطرق أبواب القلب، ويعبر عن أشجان المكلوم، وينقل آلام المجروح، ويكشف عن آهاته وأحزانه؛ فإنه يكون له وقْع السحر والطرب والإعجاب والاستحسان... عند متلقيه. وشعر الرثاء على مر الأيام، وتعاقب السنين، وتوالي العصور؛ يعبر عن مشاعر القلب وأشجانه وآهاته وأحزانه وآلامه... ، ومن ثم امتزج بالنبرة الصادقة، وامتلأ بالعاطفة الحزينة، واكتظ بالمشاعر الجياشة، ونقْل الخواطر المتحسرة، وشعور الأكباد المتفجعة، ويتفاوت ذلك من شاعر إلى شاعر آخر بقدْر المفقود الذي يرثيه، ومدى منزلته ومكانته في نفس الراثي.

ويكاد الشعر في هذا الغرض يكون على مسيرة ووتيرة واحدة؛ من تفجع وتحسر وحزن ولوعة وألم وأسى... وذِكر لمآثر الفقيد، وتعزية لأب يتوجع من الكلوم، أو أم تتحسر من وقْع المصاب، أو أخ يتفطر بكاء وحزنا على أخيه... أو غير ذلك من بكاء الباكين وألمهم ونحِيبهم على الأحبة الذين فُقدوا ورحلوا. ويتميز شعر الرثاء؛ بأنه أجود الشعر وأصدقه، قال الأعرابي حين سئل" ما بال المراثي أجود أشعاركم؟؟ قال: لأننا نقول وأكبادا تحترق" . (١)

(١) البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون ٢/ ٣٢٠، طبعة/مؤسسة الخانجي، القاهرة، طبعة/ رابعة ١٣٩٥هـ.

والموضوع الذي سيتناوله البحث بالدراسة؛ يتسم بالخصوصية والشرف والمنزلة والمزية... ، فهو يتناول شخصية أفضل وأكرم وأطهر وأصفى... الخلق الذي اصطفاه الله ﷻ وفضّله وجعله خاتم النبيين والمرسلين؛ ومن ثم فليس هناك حدث أو خطْب أصاب أو سيصيب البشرية؛ كخطْب موت المصطفى ﷺ ، أليس هو من قال" تعزّو على مصائبكم بي" . [1] وعليه فقد كان خبر موت المصطفى ﷺ كالصاعقة التي نزلت على الصحابة ﷺ في ذلك الوقت؛ لذا جاء قول المولي ﷻ في كتابه العزيز يخاطبهم كي لا يحدثوا جزعا أو تعجبا واستنكارا، فقال﴿ ومَا محَمّدٌ إلّا رسُولٌ قدْ خلَتْ مِنْ قبْلِهِ الرّسُل أفإنْ ماتَ أو قُتِلَ انقَلَبتُمْ على أعْقَابِكُمْ...﴾ . [2] ومن هنا تنوّع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ تبعا لمنزلته ومكانته في نفوس الكثير من الصحابيات ﷺ بصفة عامة، وفي نفوس عماته بصفة خاصة، فكل واحدة منهن كان لها معنى وغرض ومقصد وحال ركزت عليه وعبرت عنه وأظهرته في رثائها، فمنهن من ركزت على وقْع المصيبة على النفس ورأت أن الدموع هي المخرج والملاذ، ومنهن من نظرت إلى حال الدنيا من بعده ووقْع فقده على النفوس التي لا تتحمل غيابه وعدم رؤيته، ومنهن من نظرت إلى ما سيحدث ويقع بعده من فتن، ومنهن من نظرت إلى حال المحتاجين والفقراء من بعده وأنهم فقدوا من كان لهم ملاذا ومعينا... وغيرها من المعاني.

وقد اختار البحث اثنتين من عماته، وهما صفية وعاتكة ﷺ ؛ لبيان أثر فقْد المصطفى ﷺ في نفسيهما، وكيف عبرت كل منهما عن هذه الواقعة، وهذا الحدث الذي هزّ ركن البشرية كلها، وكيف نوعت كل منهما في أسلوبها ومعانيها التي تُجلي

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٤/ ٧٦، طبعة/ دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة/ ثالثة ١٩٩٧ م .

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.

عن الأثر الذي في النفس، وتكشف عن الألم الذي في الوجد، وتبرهن عن الحزن الذي في القلب، وتبين عن الحسرة... التي في الفؤاد، وتظهر وقْع الفقد على النفس.

وقد اعتمد البحث على جمْع كل أشعار عمتي النبي ﷺ ، واعتمد في ذلك على كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس، طبعة/ دار صادر، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٦٨م؛ نظرا لما احتواه وتفرّد به الكتاب، وهذا التحقيق، وتلك الطبعة، من عرض لكل القصائد التي وردت للصحابيتين، والتي لم تُذكر ـ حسب ما بذله البحث من جهد في السعي والبحث ـ في غيره من الكتب والطبعات، فجمع البحث كل ما ورد لهما في الطبقات من أشعار في رثاء النبي ﷺ .

ولطالما تمنى البحث أن يكتب حول المصطفى ﷺ وأن يتناول أي جانب من الجوانب التي تكشف عنه ﷺ وعن قدْره ومكانته ومنزلته... وما تركه للبشرية من علم حوى الكثير من الإعجاز الذي منه ما ظهر على أيدي العلماء، ومنه لما يظهر بعد. ولما لم يتيسر للبحث ذلك في مرحلتي الماجستير والدكتوراه؛ زاد شوقه وتشوقه لأن يكتب عن المصطفى ﷺ في مرحلة أبحاث الترقية.

هذا: والبحث لا يرى في نفسه الأهلية الكاملة، والأمانة التامة ليكتب عن الحبيب ﷺ ، وإنما هو شرف عظيم، وسعادة عالية يرجو أن يوفق فيها، وأن يتمكن من الكشف عن تنوع التعبير الذي ورد عند الصحابيتين ﷺ في رثاء شخصية المصطفى ﷺ التي نقلت جزيرة العرب ـ والأمة كلها ـ من شتى ما كانت فيه من جهل وضلال وظلم وكفر وشرك... ؛ إلى نور العلم والإيمان والعدل والصلاح والفلاح... .

وقد اتبع البحث منهج الموازنة القائم على الاستقراء والتحليل والانتقاء، فبعد عرض القصائد كاملة؛ يبدأ البحث في اختيار وانتقاء الأبيات التي تدل على تنوع التعبير بين الصحابيتين ﷺ ، ثم الموازنة بين الأساليب اللاتي عبرت بها كل منهما عن أثر حالة الفقد والرثاء؛ ساعيا إلى الكشف من وراء ذلك عن الروابط بين

الأساليب التي وردت لهما، وملاحظة الفرق في تنوع التعبير عندهما، والإشارة إلى التراكيب التي شكّلت بها كل منهما المعنى، ودعّمت رثاءها، وكشفت عن أثر المصيبة على نفسها، وكيف نقلت كل منهما الأحاسيس الملتهبة، والانفعالات الحادة، والمشاعر الجياشة الحزينة... عن طريق التنوع في الأساليب.

هذا: وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد، وأربعة مباحث وخاتمة وفهارس على النحو الآتي:

المبحث الأول: تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الصحابيتين ﷺ في الشعور بكثرة البكاء.

المبحث الثاني: تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الصحابيتين ﷺ في بيان منزلته ومكانته.

المبحث الثالث: تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الصحابيتين ﷺ في بيان كرمه على المحتاجين.

المبحث الرابع: تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الصحابيتين ﷺ في الدعاء للمصطفي ﷺ .

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

ثبت المصادر والمراجع.

التمهيد

وفيه إطلالة على مفردات البحث ـ المراد بتنوع التعبير ـ حول الشاعرتين ـ عرض قصائد الشاعرتين ـ

أولا ـ المراد بتنوع التعبير: تنوع التعبير هو اختلاف يحدث في التعبير عن المعاني التي يصوغها متكلم واحد، أو يشترك فيها اثنان أو أكثر، فيصوغ كل واحد منهما المعنى بطريقة معينة؛ بحيث يصبح لكل واحد منهما أساليبه وجمله وتركيباته الخاصة التي تنطق عن معناه، وتكشف عن مغزاه، وتظهر غايته، وتُبين عن مقصوده.

وتنوع التعبير يعد من صور المعاني المشتركة التي تكون بين شاعرين أو أكثر، وهي تعد من صميم الدرس البلاغي؛ وذلك لأن الشاعرين قد يشتركان في معنى، وبينهما من الفروق ما تختلف فيه الصور، وتتنوع فيه العبارة، وتتشكل فيه الألفاظ، وتتباين فيه السمات، وتتعاقب عليه الصنعة، وتفترق فيه الخواص، وتتعدد فيه الأذواق، وتتلون فيه الطباع، فيكون لكل منهما خاصيته وسمته وطبعه في معناه الذي عبر عنه. يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني ـ رحمه الله ـ في هذا الشأن" وقد أردت أن أكتب جملةً من الشّعر الذي أنت ترى الشّاعرين فيه قد قالا في معنى واحد، وهو ينقسم قسمين: قسم أنت ترى أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غُفلاً ساذجاً، وترى الآخرَ قد أخرجه في صورة تروقُ وتُعجبُ، وقسمٌ أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع في المعنى وصوَّر ...." . [1]

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، صـ ٤٨٩ ، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ ثالثة ١٩٩٢م .

وبهذا: فإن عرض فكرة واحدة لشاعرين مختلفين تُظهر كيف يتصرف فيها كل منهما بأوجه مختلفة، وأداء مطبوع، وسمت خاص، ولغة فنية، حيث يستطيع الشاعر بمقدرته الفنية عرض فكرته بأسلوب متميز، وطريقة متفردة، وتعبير متوائم، وتأدية مخصوصة، وطريقة فريدة متنوعة تجعله مختلفا عن الآخر. ذلك أن" انبثاق المعاني وانبعاثها في النفوس، إنما تكون على هيئات خاصة، وصور خاصة تتكاثر وتستفيض وتزخر كل نفس بما تزخر به منه، وهي مع هذه الكثرة وهذا الفيض تتباعد وتتقارب، وتتشابه أو تتباين، ولكنها لا تتطابق أبدا" . (١)

والبحث عن هذا هو بحث في الدقائق التي بها يُرى افتراق الصور حيث افترقت، كما تُرى المعاني حيث التقت، فصُور المعنى تتفق وتختلف، وتجتمع وتفترق، وتتقارب وتتباعد، وتظهر وتغمض، فيظهر من خلالها سر كل شاعر، وطابعه وسمته، وفنيته وسحره، ويتضح من خلالها كل مكنون في أعماقه.

وشعر الشاعرتين والتنوع الذي حدث بينهما؛ جاء في رثاء أكرم الخلق ﷺ فبدأت كل منهما في التعبير عن كل ما يؤلمها، ويجيش في صدرها من حزن، ويقطع في أحشائها من نحيب؛ حُزنا وحسرة وندما... على رحيل المصطفى ﷺ . فالرثاء يلجأ إليه المتكلم؛ لتفريغ شحنة الحزن الملتهبة في الأعماق، وتخفيف هول المصاب، والربط على التفجع القائم في الأكباد، وهذا ما عبّرت عنه الشاعرتان، فقد وجدت كل منهما راحتها في البكاء المتجدد المتأجج المستمر الذي يزداد تبعا لفضائل ومكانة المصطفى ﷺ وخصاله ومنزلته.

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر، أ. د. محمد أبو موسى، صـ ٧٢، طبعة/ مكتبة وهبة، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩١م.

ونتيجة لمنزلة المصطفى ﷺ ومكانته؛ تنوّع التعبير عن أثر فقْده عند الشاعرتين، فكل واحدة منهما وجدت راحتها في نقل المشاعر الداخلية التي تشعر بها في أسلوب معين، وبث مكامن النفس في طريقة مخصوصة، وإخراج أحزانها في فكرة معينة، ونشر آلامها في صياغة متنوعة؛ تنفُذ كل منهما من خلالها إلى نقل ما يجول في خلجات النفس من أحزان وآلام وحسرة... على رحيله ﷺ .

ثانيا ـ التعريف بعمتي المصطفى ﷺ : لقد رثا المصطفى ﷺ الكثير من الرجال والنساء، فلم يكن خبر موته إلا صدمة وفاجعة ألمّت بالصحابة ﷺ في ذلك الوقت، وبالبشرية جمعاء من بعدهم؛ لذا انطلقت ألسنة الشعراء بالكثير من الأشعار التي صوّرت تلك الفاجعة التي نزلت بهم، وكيف أن البكاء لن يكون شافيا، فالأمر جلل، والحدث عظيم، والمصيبة كبرى، والمصطفى ﷺ يفديه الصحابة بأرواحهم، لكن أمر الله ﷻ أتي، وقضاءه وقع؛ فعلى الجميع أن يسلموا لأمر الله ﷻ ، وإن بقي شيء في ذلك الوقت؛ فما هو إلا تلك الدموع، وهذا البكاء، وذِكر محاسن المصطفى ﷺ التي لا تحصى، وتصوير حال الناس من بعده، ومدى وقع فقده ﷺ على أهل الأرض أجمعين، وهذا ما صوّره الشعراء عامة، وشاعرتا البحث خاصة، وهما:

أولا ـ صفية بنت عبد المطلب: وهي" صفية بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية القرشية عمة رسول الله ﷺ وهي أم الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة" . (١) لم يختلف في إسلامها أحد، فقد" أسلمت صفية وبايعت رسول الله ﷺ وهاجرت إلى المدينة وأطعمها رَسُول اللَّه ﷺ أَرْبَعِينَ وسقا بخيبر" . (٢) "

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لعز الدين بن الأثير ٣٤٩/٤، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة/ نهضة مصر، القاهرة ١٩٧١ م.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ٨/ ٣٤، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٩٠م.

وكانت في الجاهلية تزوجت من الحارث بن حرب بن أمية بن عبد شمس فمات عنها؛ فتزوجها العوّام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى فولدت له الزبير والسائب وعبد الكعبة، وعاشت كثيرا وتوفيت سنة عشرين هجرية وكان لها ثلاث وسبعون سنة". (١)

ثانيا ـ عاتكة بنت عبد المطلب: هي" عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي. وأمها فَاطِمَةُ بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذِ بْنِ عِمْرَانَ بن مخزوم. تزوجها في الجاهلية أبو أمية بْن المغيرة بْن عَبْد الله بْن عمر بن مخزوم فولدت له عبد الله وزهيرًا وقريبة. ثم أسلمت عاتكة بنت عبد المطلب بمكة وهاجرت إلى المدينة" . (٢) لم تحدد المصادر تاريخ وفاتها، وقال الزركلي" والثابت أنها كانت يوم وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وروي أنها عاشت بعد النبي ﷺ ، وقيل ماتت قبل الهجرة، وقيل توفيت بالمدينة المنورة ودفنت بالبقيع" . (٣)

ثالثا ـ عرض قصائد الشاعرتين:

أولا ـ السيدة صفية: القصيدة الأولى:

عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ تَسْكاب ... لِلنَّبِـــيّ المُطَهّـــرِ الأوّاب

وَانْدُبِي الْمُصْطَفَى فَعُمِّيَ وَخُصِّي ... بِـــدُمُوعٍ غَزِيـــرَةِ الْأَسْـــرَابِ

عَيْنِ مَنْ تَنْدُبِينَ بَعْدَ نَبِيٍّ ... خَصَّـــهُ اللَّـــهُ رَبُّنَـــا بِالْكِتَـــابِ

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق: علي محمد البجاوي ٤/ ١٨٧٣، طبعة/ دار الجيل، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٩٢م.

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ٨/ ٣٦.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وشرح: مصطفي السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي ١/ ١٦٥، طبعة/ دار المعرفة، بيروت.

فَـاتِحٍ خَـاتَمٍ رَحِيمٍ رَءُوفٍ صَـادِقِ الْقِيـلِ طَيِّـبِ الْأَثْـوَابِ
مُشْفِقٍ نَاصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْنَا رَحْمَـةٍ مِـنْ إِلَهِنَـا الْوَهَّـابِ
رَحْمَـةُ اللَّـهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْـهِ وَجَـزَاهُ الْمَلِيـكُ حُسْنَ الثَّـوَابِ!

القصيدة الثانية:

أفـــاطِمُ بَكِّـــي ولا بِصُـبْحِكِ مـا طلَـعَ الكَوْكـبُ!
هُـو المـرءُ يُبْكَـى، وحـقّ هُـو الماجِدُ السيّدُ الطّيـبُ!
فأوْحَشَـــتِ الأرضُ مِـــنْ وأيّ البريّـةِ لا يُنْكَـبُ؟
فمَـا لِـيَ بَعْـدَكَ حتّـى تِ إلّا الجَـوَي الـدّاخِلُ المُنْصِـبُ
فَبَكِّـي الرّسُـولَ! وحُقّـتْ شُـهُودُ المدينَـةِ والغُيّـبُ!
لِتَبْكِيـــكَ شَـــمْطاءُ إذَا حُجِـبَ النـاسُ لا تُحْجَـبُ
لِيَبْكِيكَ شَيْخٌ أبُو ولْدَةٍ يطُـوفُ بِعِقْوَتِـهِ أشْـهَبُ
ويبَكْيِـــكَ ركْـــبٌ إذا فلَـمْ يُلْـفَ مـا طَلَـبَ الطُّلّـبُ
وتبْكِى الأباطِحُ مِنْ فَقْدِهِ وتبْكِيـهِ مكّـةُ والأخْشَـبُ
وَتَبْكِي وَعِيْرَةُ مِنْ فَقْدِهِ وحُـقّ لِـدَمْعِكِ يُسْتَسْـكِبُ!
فعيْنِيَ مالَكِ لا تدْمعِين؟ بِحُـزْنٍ وَيُسْـعِدُهَا الْمِيثَـبُ!

القصيدة الثالثة:

لهْفَ نَفْسِي! وَبِتُّ كَالْمَسْلُوبِ آرِقُ اللَّيْلَ فِعْلَةَ الْمَحْرُوبِ!
مِنْ هُمُومٍ وَحَسْرَةٍ رَدَفَتْنِي لَيْـــتَ أَنِّـــي سُـــقِيتُهَا
حِينَ قَالُوا: إِنَّ الرَّسُولَ قَدَ أَمْسَى وَافَقَتْهُ مَنِيَّةُ الْمَكْتُوبِ!

إِذْ رَأَيْنَا أَنَّ النَّبِيَّ صَرِيعٌ ... فَأَشَابَ الْقَذَالَ أَيّ

إِذْ رَأَيْنَا بُيُوتَهُ مُوحِشَاتٍ، ... لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْشٍ حَبِيبِي

أَوْرَثَ الْقَلْبَ ذَاكَ حُزْنًا طَوِيلا، ... خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ

لَيْت شعْرِي! وَكَيْفَ أُمْسِي صَحِيحًا ... بَعْدَ أَنْ بِينَ بِالرَّسُولِ

أَعْظَمِ النَّاسِ فِي الْبَرِيَّةِ حَقًّا، ... سَيِّدِ النَّاسِ حُبُّهُ فِي

فَإِلَى اللَّهِ ذَاكَ أَشْكُو! وَحَسْبِي ... يَعْلَمُ اللَّهُ حَوْبَتِي

القصيدة الرابعة:

أَرِقْتُ فَبِتُّ لَيْلِيَ كَالسَّلِيبِ ... لِوَجْدٍ فِي الْجَوَانِحِ ذِي دَبِيبِ!

فَشَيَّبَنِي، وَمَا شَابَتْ ... فَأَمْسَى الرَّأْسُ مِنِّي كَالْعَسِيبِ

لِفَقْدِ الْمُصْطَفَى بِالنُّورِ حَقًّا، ... رَسُول اللَّهِ، مَا لَكَ مِنْ ضَرِيبِ

كَرِيمِ الْخِيمِ أَرْوَعِ ... طَوِيلِ الْبَاعِ مُنْتَجَبٍ نَجِيبِ!

ثَمَالِ الْمُعْدَمِينِ وَكُلّ جَارٍ، ... وَمَأْوَى كُلّ مُضْطَهَدٍ غَرِيبِ

فَإِمَّا تُمْسِ فِي جَدَثٍ مُقِيمًا، ... فَقِدْمًا عِشْتَ ذَا كَرَمٍ وَطِيبِ!

وَكُنْتَ مُوَفَّقًا فِي كُلِّ أَمْرٍ ... وَفِيمَا نَابَ مِنْ حَدَثِ الْخُطُوبِ

القصيدة الخامسة:

آبَ لَيْلِي عليّ بِالتَّسْهَادِ، ... وَجَفَا الْجَنْبَ غَيْرُ وَطْءِ الْوِسَادِ

وَاعْتَرَتْنِي الْهُمُومُ جِدًّا بِوَهْنٍ ... لِأُمُورٍ، نَزَلْنَ حَقًّا، شِدَادِ

رَحْمَةً كَانَ لِلْبَرِيَّةِ طُرًّا، ... فَهَدَى مَنْ أَطَاعَهُ لِلسَّدَادِ

طَيِّبُ الْعُودِ وَالضَّرِيبَةِ وَالشِّـ ... ـيمِ مَحْضُ الْأَنْسَابِ وَارِي الزِّنَادِ

أَبْلَجٌ صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ، صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْتَهَى الرُّوَّادِ!
عَاشَ مَا عَاشَ فِي الْبَرِيَّةِ بَرًّا، وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ الْمُرْتَادِ
ثُمَّ وَلَّى عَنَّا فَقِيدًا حَمِيدًا، فَجَزَاهُ الْجِنَانَ رَبُّ الْعِبَادِ!

القصيدة السادسة:

عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ، وَانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ!
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا، خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَعْمُودِ
كِدْتُ أَقْضِي الْحَيَاةَ لَمَّا أَتَاهُ قَدَرٌ خُطَّ فِي كِتَابٍ مَجِيدِ!
فَلَقَدْ كَانَ بِالْعِبَادِ رَؤُوفًا، وَلَهُمْ رَحْمَةً وَخَيْرَ رَشِيدِ
وَانْدُبِي الْمُصْطَفَى بِحُزْنٍ شَدِيدٍ وَجَزَاهُ الْجِنَّانَ يَوْمَ الْخُلُودِ!
عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ، وَانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ!
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا، خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَعْمُودِ

القصيدة السابعة:

أعيْنَيّ جُودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ يُبَادِرُ غَرْبًا بِمَا مُنْهَدِمْ
أَعَيْنَيّ فَاسْحَنْفِرَا وَاسْكُبَا بِوَجْدٍ وَحُزْنٍ شَدِيدِ الأَلَمْ
عَلَى صَفْوَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ وَرَبِّ السَّمَاءِ وَبَارِي النَّسَمْ
عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْهُدَى وَالتُّقَى وَلِلرُّشْدِ وَالنُّورِ بَعْدَ الظُّلَمْ

عَلَى الطَّاهِرِ الْمُرْسَلِ الْمُجْتَبَى رَسُولٍ تَخَيَّرَهُ ذُو الْكَرَمْ [1]

أعيْنَيّ جُودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ يُبَادِرُ غَرْبًا بِمَا مُنْهَدِمْ

أَعَيْنَيّ فَاسْحَنْفِرَا وَاسْكُبَا بِوَجْدٍ وَحُزْنٍ شَدِيدِ الأَلَمْ

ثانيا ـ السيدة عاتكة: القصيدة الأولى:

يا عَيْنِ جُودِي، ما بَقِيتِ، بِعَبْرَةٍ سَحًّا علَى خيْرِ البَرِيّةِ أحْمَد

يا عَينِ فاحْتَفِلِي وسُحّي واسْجُمِي وابْكِي علَى نُورِ البِلَادِ مُحَمّدِ!

أنّى، لكِ الوَيْلاتُ! مِثْلُ فِي كُلّ نائِبَةٍ تَنُوبُ ومَشْهَدِ؟

فابْكِي المُبارَكَ والمُوَفّقَ ذا حامِي الحقِيقَةِ ذا الرّشادِ المُرْشِدِ

مَنْ ذَا يفُكّ عَنِ المُغَلّلِ غُلّهُ بعْدَ المغَيّبِ فِي الضّرِيحِ المُلْحَدِ؟

أمْ مَنْ لِكلّ مُدَفّعٍ ذِي حاجَةٍ، ومُسَلْسَلٍ يشْكُو الحدِيدَ مُقَيّدِ؟

أمْ منْ لِوحْيِ اللهِ يُتْرِكُ بيْنَنَا فِي كلّ مُمْسِي ليْلَةً أو فِي غدِ؟

فعَلَيْكَ رحمَةُ ربّنَا يا ذَا الفَوَاضِلِ والنّدَى والسّودَدِ!

هلّا فَداكَ المَوْتَ كُلّ مُلعّنٍ شَكْسٍ خلَائقُهُ لئيمُ المَحْتِدِ؟

يا عَيْنِ جُودِي، ما بَقِيتِ، بِعَبْرَةٍ سَحًّا علَى خيْرِ البَرِيّةِ أحْمَدِ

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس ٢/ ٣٢٧ـ ٣٣٠، طبعة/ دار صادر، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٦٨م.

القصيدة الثانية:

عَيْنَيَّ جُودَا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرَا سَكْبًا وَسَحًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ!
يَا عَيْنِ فَاسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَفِلِي حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجْلٍ غَيْرِ مَنْزُورِ
يَا عَيْنِ فَانْهَمِلِي بِالدَّمْعِ وَاجْتَهِدِي لِلْمُصْطَفَى، دُونَ خَلْقِ اللَّهِ، بِالنُّورِ
وَكُنْتِ مِنْ حَذَرٍ لِلْمَوْتِ مُشْفِقَةً، فَقَدْ رُزِئْتُ نَبِيَّ الْعَدْلِ وَالْخِيرِ!
مِنْ فَقْدِ أَزْهَرَ صَافِي الْخُلُقِ ذِي وَلِلَّذِي خُطَّ مِنْ تِلْكَ الْمَقَادِيرِ!
فَاذْهَبْ حَمِيدًا! جَزَاكَ اللَّهُ صَافٍ مِنَ الْعَيْبِ وَالْعَاهَاتِ وَالزُّورِ!
بِمُسْتَهَلٍّ مِنَ الشُّؤُبُوبِ ذِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ

القصيدة الثالثة:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ عَلَى الْمُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
عَلَى الْمُصْطَفَى بِالْحَقِّ وَالنُّورِ وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ الْمُنْدَبَاتِ الْعَظَائِمِ
وَسِحَّا عَلَيْهِ وَابْكِيَا مَا عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْمُحْكَمَاتِ الْعَزَائِمِ
عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْبِرِّ وَالْعَدْلِ وَلِلدِينِ وَالإِسْلامِ بَعْدَ الْمَظَالِمِ
عَلَى الطَّاهِرِ الْمَيْمُونِ ذِي الْحِلْمِ وَذِي الْفَضْلِ وَالدَّاعِي لَخَيْرِ التَّرَاحُمِ
أعيْنَيّ مَاذَا بعْدَ مَا قَدْ بِهِ، تَبْكِيَانِ الدَّهْرَ مِنْ وُلْدِ آدَمَ؟
فَجُودَا بِسَجْلٍ وَانْدُبَا كُلَّ رَبِيعَ الْيَتَامَى فِي السِّنِين الْبَوَازِمِ!
شَارِقٍ (١)

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: إحسان عباس٢/ ٣٢٦، ٣٢٧.

المبحث الأول

تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفْس الشاعرتين في الشعور بالبكاء

يعد البكاء مظهرا من مظاهر التعبير عن الرثاء، فالراثي يلجأ إليه؛ لتفريغ شحنة الحزن الملتهبة في الأعماق، وتخفيف هول المصاب على النفس، وتنفيسا عن ما يعتلج نفسه من أوجاع وآلام وأحزان وأشجان... ، ومما يروى "عن سليمان بن عبد الملك أنه قال عند موت ابنه أيوب لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إني لأجد في كبدي جمرة لا تطفئها إلا عبرة، فقال عمر: اذكر الله يا أمير المؤمنين وعليك الصبر. فنظر إلى رجاء بن حيوة كالمستريح إلى مشورته، فقال له رجاء: أفضضها يا أمير المؤمنين، فما بذاك من بأس، فقد دمعت عين رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم، وقال: إن العين تدمع، والقلب يوجع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عينه فبكى حتى قضى أربا، ثم أقبل عليهما فقال: لو لم أنزف هذه العبرة لانصدعت كبدي" . [1] ونتيجة لكون البكاء يخفف من هول المصاب ووقعه؛ فإن البكاء يتعدد ويتنوع ويزداد... ؛ حتى يستطيع الراثي نقْل ما بداخله من أحاسيس ومشاعر وخواطر وأشجان وحسرات...، وهذا ما فعلته كل من السيدة صفية وعاتكة ﷺ ، فقد ارتأت كل منهما في البكاء مخرجا وملاذا ومتنفسا وراحة... بعد رحيل المصطفى ﷺ ، فأكثرت منه كل منهما، فقالت السيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى: والأبيات من بحر الوافر:

عَـيْنِ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ تسْـكَاب ... للنّبِـيّ المُطَهّـرِ الأوّاب

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ٤/ ٤٥، طبعة/ دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة/ ثالثة ١٩٩٧م.

وَانْـدُبِي الْمُصْـطَفَى فَعُمِّـيَ وَخُصِّـي بِـدُمُوعٍ غَزِيـرَةِ الْأَسْـرَابِ

عَـيْنِ مَـنْ تَنْـدُبِينَ بَعْـدَ نَبِـيٍّ خَصَّـهُ اللَّـهُ رَبُّنَـا بِالْكِتَـابِ [١]

وقالت في الثانية: والأبيات من بحر المتقارب:

أفـاطِمُ بَكِّـي ولا تَسْـأمِي بِصُـبْحِكِ مـا طلَـعَ الكَوْكـبُ!

هُو المرءُ يُبْكَى، وحَقّ البُكَاء! هُو الماجِدُ السيّدُ الطّيبُ! [٢]

وقالت في السادسة: والأبيات من بحر الوافر:

عَيْنِ جُـودِي بِدَمْعَـةٍ وَسُـهُودِ وَانْـدُبِي خَيْـرَ هَالِـكٍ مَفْقُـودِ!

وَانْـدُبِي الْمُصْـطَفَى بِحُـزْنٍ شَـدِيدٍ، خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَعْمُودِ [٣]

وقالت في السابعة: والأبيات من بحر المتقارب:

أعيْنَـيّ جُـودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ يُبَـادِرُ غَرْبًـا بِمَـا مُنْهَـدِمْ

أَعَيْنَـيّ فَاسْـحَنْفِرَا وَاسْـكُبَا بِوَجْـدٍ وَحُـزْنٍ شَـدِيدِ الأَلَـمْ

عَلَى صَفْوَةِ اللَّـهِ رَبِّ الْعِبَادِ وَرَبِّ السَّمَاءِ وَبَـارِي النَّسَـمْ [٤]

---

(١) تسكاب: من السّكب، وهو الصب المتتابع. الفروق اللغوية ١/ ٣١٣. الأسراب: الجريان، من قولهم: سرب الماء يسرُب سروبا، أي يجري جريا. تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٩.

(٢) الماجد: الحسن الخلق السمح الكريم المعطاء. لسان العرب، فصل/ الميم ٣/ ٣٩٦.

(٣) وسهود: من السّهُد وهو القليل من النوم. القاموس المحيط ١/ ٢٩١. المعمود: المشعوف الذي هدّه العشق وكسره، وصار كالشيء عُمد بشيء. مقاييس اللغة ٤/ ١٣٨.

(٤) سجم: دمع العين إذا انصب. تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٧. اسحنفري: من قولهم: اسحنفر المطر: أي انصب. تاج العروس ١١/ ٥٢١.

بينما قالت السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الأولى: والأبيات من بحر الكامل:

يـا عَـيْنِ جُـودِي، مـا بَقِيـتِ، سَـحًّا علَـى خيْـرِ البَرِيّـةِ أحْمَـدِ
أنّـى، لـكِ الـوَيْلاتُ! مِثْـلُ وابْكِـي علَـى نُـورِ الـبِلَادِ مُحَمّـدِ!
يـا عَـينِ فـاحْتَفِلِي وسُـحّي فِي كُلّ نائِبَةٍ تَنُوبُ ومَشْهَدِ؟ (١)

وقالت في الثانية: والأبيات من بحر البسيط:

عَيْنَيَّ جُودَا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرَا سَكْبًا وَسَحًّا بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ!
يَا عَيْنِ فَاسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَفِلِي حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجْلٍ غَيْرِ مَنْزُورِ
يَا عَيْنِ فَانْهَمِلِي بِالدَّمْعِ وَاجْتَهِدِي لِلْمُصْطَفَى، دُونَ خَلْقِ اللَّهِ، بِالنُّورِ
بِمُسْتَهَلٍّ مِنَ الشُّؤُبُوبِ ذِي فَقَدْ رُزِئْتُ نَبِيَّ الْعَدْلِ وَالْخِيرِ! (٢)

وقالت في القصيدة الثالثة: والأبيات من بحر الطويل:

أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ عَلَى الْمُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
عَلَى الْمُصْطَفَى بِالْحَقِّ وَالنُّورِ وَالْهُدَى وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ الْمُنْدَبَاتِ الْعَظَائِمِ
وَسِحَّا عَلَيْهِ وَابْكِيَا مَا بَكَيْتُمَا عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْمُحْكَمَاتِ الْعَزَائِمِ (٣)

---

(١) سحي: السح: السيلان بشدة. المخصص، باب/ الدمع ومافيه١/ ١١٦. اسجمي: السجمان: سيلان الدمع كله قليله وكثيره. المخصص١/ ١١٦.

(٢) منزور: قليل. العين ٧/ ٣٥٩. رزئت: أي مصابك عظيم فبكاؤك على هالك بعده ضلال. المحكم والمحيط الأعظم ٢/ ١٩.

(٣) السواجم: أي المنصبة. تهذيب اللغة ١٠/ ٣١٧. العزائم: الآيات تقرأ على المريض رجاء بركتها. مجمل اللغة لابن فارس ١/ ٦٦٦.

هذه الأبيات في مجملها نفْثة مِن حزينة أذهلها الحزن، وأثقلها الثكل، واعتصرها الحرمان؛ حين جاءها خبر رحيل المصطفى ﷺ ، وقد نوّعت كل منهما في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ .

ويتجلى للبحث التنويع في التعبير عند الشاعرتين بذكر النداء تارة، وطيه تارة، فقالت السيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى" عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ تسْكاب" وفي الثانية" أفاطِمُ بَكِّي ولا تَسْأمِي" وفي السادسة" عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ" وفي السابعة" أعيْنَيّ جُودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ" ونداء العين هنا يدل على حرص السيدة صفية ﷺ على تحصيل البكاء، ورغبتها في حدوثه بسرعة، وبيان ما هي فيه من ضيق مقام، وحزن وأسى، فالوقع شديد على النفس، والحدث جلل، والمصيبة عظمى.

ويلْحظ البحث أن السيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية ابتدأت بمناداة السيدة فاطمة ﷺ بنداء القريب؛ مما يشير إلى قربها منها وحضورها هذه المأساة الكبرى، والحدث الجلل؛ وهو فقْد المصطفى ﷺ ، فتطلُب منها أن تشاركها البكاء؛ لهول المصاب، وشدة الوقع، وقوة الفادحة، وعِظم المصيبة على نفسها، ومن ثم فالسيدة صفية ﷺ لا تريد من السيدة فاطمة ﷺ أن تنقطع أو تتوقف عن البكاء.

والأوامر في" عَيْنِ جُودِي، أفاطِمَ بَكِّي، أعيْنَيّ جُودَا" للحث على الفعل، فالحدث جلل، والمصيبة كُبرى، والواقعة عظيمة، والمفقود ما بعده مفقود تحزن عليه النفس، أو تتقطع له الأحشاء، أو يعتصر الحزن القلب على فراقه، أو تنسال الدموع من العينين بغزارة لرحيله؛ لذا فالسيدة صفية ﷺ تحث العينين كي تجود بكل ما تملك من دموع، وتستحثها كي لا تبخل ولا تتوقف عن البكاء.

بينما السيدة عاتكة ﷺ رغم أنها ابتدأت قصائدها بمناداة العينين، ونوعت في التعبير بذكر النداء وطيه، فقالت في الأولى"يا عَيْنِ جُودِي، ما بَقِيتِ، بِعَبْرَةٍ" وفي الثانية" عَيْنَيَّ جُودَا طَوَالَ الدَّهْرِ وَانْهَمِرَا" وفي الثالثة" أَعَيْنَيَّ جُودَا بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ" ـ

؛ وهذا يشير إلى حاجة السيدة عاتكة ﷺ للبكاء، وإلى دوامه واستمراره، ومدى تأجج عاطفتها المتحسرة، وما مسّ مشاعرها من حزن ملتهب، وما حدث في وجدانها من لوعة ولهيب ومضاضة وألم... كما فعلت السيدة صفية ﷺ .

بيْد أن السيدة عاتكة ﷺ اقتصرت في مواضعها على مخاطبة العين، وطلبها البكاء منها، ولم تلجأ إلى مخاطبة شخص قريب من الفقيد؛ كي يشاركها البكاء، ويقاسمها الوجع، ويعاونها في الفجيعة كما فعلت السيدة صفية ﷺ ونوّعت في خطاب العينين تارة، وخطاب السيدة فاطمة ﷺ في قصيدتها الثانية حين قالت: "أفاطِمُ بَكِّي" .

ولا شك أن الزيادة التي آثرتها السيدة صفية ﷺ من عدم الاكتفاء ببكاء العينين ومخاطبة القريب من الفقيد؛ أبلغ في الدلالة على كمال الحزن، وأشد في التعبير عن مرارة الفقد، وآكد على أن الحدث جلل يحتاج المرء فيه إلى من يناشده في ألمه، ويحادثه في مصيبته، ويشاركه في أوجاعه، ويتداخل معه في حزنه، ويواسيه في ما يكابده؛ فكان نداء السيدة صفية ﷺ للسيدة فاطمة ﷺ ؛ أبلغ في إظهار شدة التحسر والأسى، فالحزن والألم والبكاء... اشتدوا حتى بادرت إلى التنوع والزيادة في المعنى من خلال عدم الاكتفاء بمناداة العين، وإنما توجهت إلى مناداة السيدة فاطمة ﷺ طالبة منها البكاء. وقد أشاد القاضي الجرجاني بهذا الفن بقوله: "وقد يتفاضل متنازعوا المعاني بحسب مراتبهم من العمل بصنعة الشعر فتشترك الجماعة في الشيء المتداول، وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب، أو ترتيب يستحسن، أو تأكيد يوضع موضعه، أو زيادة اهتدى لها دون غيره، فيريك المشترك في صورة المبتدع". [1]

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي، صـ ١٨٦، طبعة/ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، د . ت.

وقد أجادت كل من الشاعرتين في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ ؛ من خلال حُسن اختيار المطلع، فاستهلت كلاهما مواضعها بمناداة العين وطلب البكاء منها؛ لتضعنا أمام هذا الحدث الجلل، والمصيبة العظمي، والخطب الفادح مباشرة؛ ولإفراغ شحنة اللهيب والأحزان بالبكاء والصراخ والندب والنحيب...؛ علّ ذلك يهون عليهما، ويخفف من آلامهما. والنداء يعمل على إخراج الشحنات الممتلئة في النفس، ويساعد على دفْع الأسى والحزن، وتخفيف ضيق الصدر، وألم الفؤاد، وكربة القلب.

وقد عمدت كل من الشاعرتين إلى رسم لوحة دقيقة في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ؛ من خلال الاستعارة المكنية في ندائهما العين، حيث شبهت كل منهما العين بإنسان يمكن أن يُنادَى ويجيب، وما ذاك إلا لحث العين على البكاء، وتأنيبها إن لم تستجب وتسارع بالجود بالدمع، وهذا يدل على شعور الشاعرتين بألم الفقْد، وحرارة الفراق، ووجع الفادحة، وكربة المصيبة، وثقل الخطب، فهما بحاجة إلى التنفيس عن ذلك بالدموع التي تجود بها العين وتنطلق.

وتظهر صنعة السيدة صفية ﷺ وتنوعها في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ ؛ من خلال السكتة التي ألزمتها للمستمع والقارئ للأبيات بعد الأمر في قولها: "أفاطِمُ بَكِّي" ثم ألزمتهما سكتة أخرى بعد النهي "ولا تَسْأمِي" وهذا قد زاد الكلام هولا وشدة، وأظهر عِظم المصيبة، وهول الفاجعة؛ حتى باتت من تفجعها وتحسرها وحزنها وألمها... كأنها تستحث الألفاظ للخروج، فبدأت تأمر تارة، وتنهى أخرى، وكأن الحزن الذي يقطع في أحشائها؛ أسكتها عن الكلام وألزمها التقطع وعدم القدرة على استرساله.

ومن تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ عند كل من الشاعرتين؛ ما لحظه البحث من تقديم النداء على الأمر في كل المواضع؛ وهذا يدل على رغبة كليهما في تنبيه المخاطب، وإيقاظ ولفت ذهنه، وجذب انتباهه نحو هذا الأمر الجلل، والحدث الأليم، والمُصاب الصعب، والخطب الفادح، والمصيبة التي نزلت وحلت وداهمت

البشرية. ذلك أن تقديم أسلوب النداء على الأمر يأتي للاهتمام بالمأمور به، قال ابن عرفة" إذا قدّم النداء على الأمر فيكون المراد تنبيه المخاطب واستحضار ذهنه لما يلقى إليه، وإن قدم الأمر على النداء كان ذلك دليلا على تأكيد طلبه وأنه هو المقصود". (١) كما أن تقديم النداء"يوقظ النفس، ويلفت الذهن؛ لأنه طلب ودعاء، فإذا جاء الأمر صادف نفسا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحسٍ واعٍ، وذهن متنبه، وهذا دليل على عناية الآمر بأمره، ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه" . (٢)

ويتبين للبحث تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ عند السيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية من خلال الإيضاح بعد الإبهام في القصيدتين الأولى والثانية، فقالت في الأولى"لِلنّبِيّ المُطَهّرِ الأوّاب" وفي الثانية: "هُو المرءُ يُبْكَى، وحَقّ البُكَاء"؛ لبيان العلة والسبب من الأمر بالبكاء، وطلب الجود من العينين، وهذا يُظهر حبها الكامل للحبيب ﷺ ، ومدى أن البكاء حق ووجب وثبت بعد فراقه ﷺ . وجاء تعريف المسند إليه بالضمير في"هُو المرءُ"؛ لبيان كمال اتصافه ﷺ بالصفات التي جاءت في الشطر الثاني في قولها: "هُو الماجِدُ السيّدُ الطّيبُ". ويحتمل أن يكون التعريف؛ لتخصيصه ﷺ بهذا البكاء الذي ثبت ووجب وحق له، فكأن غيره يُبكى أيضا عليه؛ لكن البكاء عليه ليس واجبا وثابتا ومقررا كالبكاءعلى المصطفى ﷺ . وهذا يدعمه بناء المضارع للمجهول في"يُبْكى" للإشارة إلى عموم البكاء على المصطفى ﷺ في كل زمان ومكان،

---

(١) تفسير ابن عرفة، تأليف. محمد بن عرفة التونسي المالكي، تحقيق: د. حسن المناعي ٢٤٨/١، طبعة/ مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، طبعة/ أولى١٩٨٦م.

(٢) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، تأليف. ا. د. محمد أبو موسى، صـ٢٥٦، طبعة/ مكتبة وهبة، طبعة/ ثانية ١٩٨٧ م.

وبيان أنه سيقع من الجميع، من حضر تلك المأساة ومن لم يحضر، من عاشها ومن سمع عنها، الجميع سيبكي ويحزن على فراق المصطفىﷺ.

بينما السيدة عاتكة ﷺ لم تعلل لبكائها إلا في القصيدة الأولى بجملة: "سَحًّا علَى خيْرِ البَرِيّةِ أحْمَدِ" أي جودي أيتها العين بعبرة ما بقيت؛ لأجل خير البرية أحمد، وقدّمت هنا الصفة على الموصوف، وهذا يشير إلى كمال المصطفى ﷺ في تلك الصفة، حتى صار إذا قال قائل: "خير البرية" لا تنصرف إلا إليه، ولا تستقر إلا له، ولا تطلق إلا عليه، والنفوس كلها تعلم أنها له. ومثل هذا التعليل والتنوع الذي ورد عند الشاعرتين؛ زاد في المعنى وضوحا، وجعله مقررا في النفوس وآكد. فالتعليل في المعاني يحتفي بها ويثبتها" من أجل أن إثبات الشيء معللاً آكَدُ في النفس من إثباته مجردا من التعليل" . (١)

وقد اعتمدت الشاعرتان في ألفاظهما بكثرة على الجملة الفعلية: "وانْدُبِي المُصْطفى، خَصّهُ اللهُ، حَقّ البُكَاء، وانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ، جُودَا، جُودِي، اسْحَنْفِرَا، اسْكُبَا، احْتَفِلِي، سُحّي، اسْجُمِي... " ؛ لما تحمله من دلالة على التجدد والاستمرارية التي تتناغم مع حالة الأسى، وتتلاءم مع طلب البكاء، وتتناسب مع صرخات الوجع، ونقل الفجيعة، وبث الآهات والألم.

ثم نوعت السيدة صفية ﷺ في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ من خلال أسلوبي النهي والكناية اللذين أعقبت بهما الأمر في القصيدة الثانية في قولها" ولا تَسْأمِي بِصُبْحِكِ مَا طلَعَ الكَوْكبُ" وكل هذا يدعم الحث على الفعل الذي اقتضاه أسلوب الأمر وتطلّبه واستدعاه من بكاء كثير غزير، فهي تحث السيدة فاطمة ﷺ

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي ٣/ ١٢٥، طبعة/ المكتبة العصرية، بيروت، طبعة/ أولى ١٤٢٣هـ.

على البكاء، ثم تنتقل إلى النهي عن الانقطاع عن البكاء أو التوقف، فالأمر جلل، والمصيبة عظيمة، ومن ثم هي بحاجة إلى المزيد والمزيد من البكاء؛ لعله يخفف من شدة المصيبة، وعِظم الفادحة، وقوة الفاجعة. وجاء قولها: "بِصُبْحِكِ مَا طَلَعَ الكَوْكبُ" كناية عن حلول الليل ودخول الظلام؛ وهذا يشير إلى حاجتها لإطالة البكاء، ورغبتها في إطالة وقته وزمنه. فبِحذق ثاقب غير مزور، وبمكر نافذ غير متكلف؛ أجلت السيدة صفية ﷺ وكشفت عن طول البكاء الذي تطلبه، وأن هذا البكاء طويل وممتد زمنه، وموصول وقته. وليس الكناية هنا لحمل الكلام على أن المراد البكاء حتى هذا الوقت فقط؛ وإنما لإظهار الحزن وشدته، ومدى وقع الخطب وقوته.

بينما السيدة عاتكة ﷺ نوّعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ من خلال الاعتراض الذي خلت منه مواضع السيدة صفية ﷺ ، فجاء في القصيدتين الأولى والثانية عقب التماسها العين أن تجود بالدمع ولا تنقطع، فقالت في الأولى: "يا عَيْنِ جُودِي ـ ما بَقِيتِ ـ بِعَبْرَةٍ" وفي الثانية" عَيْنَيّ جُودَا ـ طَوَالَ الدَّهْرِ ـ وَانْهَمِرَا" والاعتراض بجملتي: "ما بقيت، طوال الدهر" ؛ يشير إلى حرص السيدة عاتكة ﷺ على استمرار الدمع وعدم انقطاعه، كما يوحي الاعتراض بأنها لا تريد دمعا مؤقتا، وإنما غايتها من العين أن تجود وتستمر في الدمع الغزير المنصب ما بقيت تدمع، أو ما بقي فيها دمع، وطوال الدهر، ومدى الحياة التي تحياها.

ويظهر عند كل من الشاعرتين وضع كل كلمة في موضعها، فالسيدة صفية ﷺ آثرت التعليل في القصيدة الأولى، فقالت: "للنّبِيّ المُطَهّرِ الأوّاب" وعقّبت الأمر بالنهي في الثانية، فقالت: "أفاطِمَ بَكِّي ولا تَسْأمِي" وعطفت السهود ـ وهو قلة النوم ـ على الدمع في السادسة، فقالت: "عَيْنِ جُودِي بِدَمْعَةٍ وَسُهُودِ" ووصفت الدمع بالسجم ـ وهو المنصب الكثير ـ في السابعة، فقالت: "أعيْنَيّ جُودَا بِدَمْعٍ سَجَمْ" .

وأما السيدة عاتكة ﷺ فقد آثرت التعليل والاعتراض في القصيدة الأولى، فقالت: "يا عَيْنِ جُودِي، ما بَقِيتِ بِعَبْرة..." وقيّدت الدمع في الثانية والثالثة، فقالت: "بِدَمْعٍ

غَيْرِ تَعْذِيرِ!، بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ" وكل هذا يدل على حرصهما على تحقيق البكاء، وعدم السأم منه، أو الانقطاع عنه. كما يشير إلى ذهاب النوم، وبقاء الدموع، وانصبابها بكثرة وغزارة من دون توقف؛ حزنا على رحيل وفراق المصطفى ﷺ . وكل هذا التركيز والتنظيم وحشد الأساليب ووصف الدموع تارة، وتقييدها تارة؛ يعد من عمود البلاغة، فالشاعر يدرك أن للكلمة دورا في التركيب، وهي العمود الذي تدور عليه البلاغة؛ لذا يضع كل كلمة في موضعها الذي يدل على غرضه ومقصده ويبين عن كل ما يجول في ذهنه وخاطره. وهذا ما قرره الخطابي من أن عمود البلاغة: "في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما يتبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة" . (١)

ثم انتقلت السيدة صفية ﷺ ونوعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ من خلال إيثارها أكثر من أمر لإفادة البكاء في قصائدها، فقالت في الأولى: "وَانْدُبِي الْمُصْطَفَى فَعُمِّيَ وَخُصِّي" وفي السادسة" وَانْدُبِي خَيْرَ هَالِكٍ مَفْقُودِ! وَانْدُبِي الْمُصْطَفَى بِحُزْنٍ شَدِيدٍ" وفي السابعة: "أَعَيْنَيّ فَاسْحَنْفِرَا وَاسْكُبَا" فتطلب من عينيها أن تبكي من شدة ما ألمّ بها من وجع. وتخيرها لفظ: "انْدُبي" في القصيدتين الأولى والسادسة؛ يحمل المزيد من التوجع والألم والتحسر والتفجع... على خير البرية ﷺ . ويدعم ذلك الطباق في قولها في الأولى: "فَعُمِّيَ وَخُصِّي" للدلالة على حاجتها إلى كل الدموع القليل والكثير منها حتى لا تُبقي عينيها شيئا من شدة حزنها وتوجعها. ويدعم هذا أيضا قولها عقب الأمر: "بِدُمُوعٍ غَزِيرَةِ الْأَسْرَابِ" أي غزيرة الانصباب. فالسيدة صفية ﷺ تريد من عينيها أن تجود بكل الدموع، وتخرجها وتصبها بغزارة ولا تدخر شيئا، أو

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي، تحقيق. محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، صـ ٢٩، طبعة/ دار المعارف، مصر، طبعة/ ثالثة ١٩٨٦م.

تحتبس دمعا، وهذا ما تجلى وبرز من خلال الطباق. فالطباق مع تجميله اللفظ: "فإنه يؤدي غرضا معنويا، حيث يستوعب الحكم كاملا، كما يأتي لعقد مقابلة حسية ونفسية أو زمانية، ومنه ما يكتشف أجزاء القضية ويبرز أطرافها، مما يؤكد أن الطباق من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع، إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده". (١)

وفي القصيدة السابعة تريد من عينيها أن تصب الدموع صبا، وتسكبها سكبا، وهذه الدموع يملؤها الحزن والوجد والألم الشديد، والجمع بين: "الوجد، الحزن، الألم" من قبيل مراعاة النظير، فكلها معان تدل على شدة الوجع، وألم الأنين، ودموع الحسرة، وبكاء التفجع...، فإن فقْد المصطفى ﷺ جعلها في حزن شديد، وألم عال، ووجد بالغ، وحسرة كاملة، وأنين دائم. ومراعاة النظير ينبئ عن المصاحبة والملازمة بين الدمع وبين تلك المعاني، فالدموع لن تنصب بغزارة وتدفّق وحسب؛ وإنما مصحوبة بتلك المعاني التي تغلغلت في الفؤاد واستقرت فيه وتمكنت منه، فبادرت تستحث عينيها على البكاء القوي، فقالت: "اسْحَنْفِرَا، اسْكُبَا"، واسحنفرا: من قولهم: اسحنفر المطر، أي: انصب، فالسيدة صفية تريد دموعا تنصب بغزارة وتتدفق مصحوبة بوجد وحزن وألم وحسرة... ؛ لعلها تخفف ما يقطع في الأحشاء.

بينما السيدة عاتكة ﷺ نوّعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ وزادت على السيدة صفية ﷺ في الأوامر التي حشدتها في القصائد الثلاثة، فقالت في الأولى: "يا عَيْنِ جُودِي... ، يا عَينِ فاحْتَفِلِي وسُحّي واسْجُمِي وابْكِي" وفي الثانية: "يَا عَيْنِ فَاسْحَنْفِرِي بِالدَّمْعِ وَاحْتَفِلِي" وفي الثالثة: "وَسِحًّا عَلَيْهِ وَابْكِيَا مَا بَكَيْتُمَا". فيظهر ميلها ﷺ إلى تدعيم كلامها بأكثر من أسلوب، فأتت بأكثر من أمر؛ وهذا يُظهر حرصها على البكاء، واهتمامها بدوامه وعدم انقطاعه. والأمر الأول: "احْتَفِلِي" يحمل في طياته العديد من المعاني، فهي لا تريد من العين أن تدمع، وإنما تريد أن يكون الدمع

(١) البديع رؤية جديدة، د. عبد الله دراز، صـ ١٤.

احتفالا، فهي لا تحتاج الدمع فقط، فالدمع وحده لا يكفي لهذا الحدث، ولا يشفي من تلك الفاجعة، ولا يهون من ألمها؛ لذا فإن الشفاء والتخفيف في الدمع الكثير الغزير؛ لذا هي تحتاج من العين أن تحتفل احتفالا بالدموع.

ثم لم تقف عند هذا الأمر، وإنما أعقبته بثلاث أوامر أخر على سبيل الترقي من الأعلى إلى الأدنى؛ لتجمع كل معاني الغزارة والسيلان والدمع، فقالت: "سُحّي، اسْجُمِي، ابْكِي" والسح المراد به السيلان بشدة، أما السجمان فهو سيلان الدمع كله قليله وكثيره؛ وهذا كله ينبئ عن رغبتها في حصول الدمع ونزوله بغزارة وكثرة وتدفق...، فهي تريد من العين أن تدمع ولا تُبقي على مائها، بل تفيض به قليلا كان أو كثيرا؛ وهذا كله يشير إلى شدة وقع الأمر على نفسها، فالعزاء والبكاء عندها ليس بكاء عاديا أو دمعا عاديا، وإنما هي بحاجة إلى أن تذرف عيناها كل مائها فلا تُبقي شيئا، فالمصاب عظيم، والأمر جلل، وفراق نور البلاد وخير البرية ﷺ ما بعده فراق؛ لذا نوعت في التعبير عن أثر الفقد، وأتت بعدة أساليب تفوقت بها على السيدة صفية ﷺ ؛ كي تحث العين على سكب الدموع بكثرة وغزارة وقوة وتدفق... من دون توقف.

وقد تناغم التنوع في التعبير من خلال تكرار الأوامر مع إظهار حالة السيدة عاتكة ﷺ بعد فقْد المصطفى ﷺ ، وأن نفسها باتت في حزن وضيق، ولم يكن الدمع وحده شافيا أو كافيا، وإنما تحتاج إلى أن تبذل العين كل ما تملك من دمع، وأن تجود بكل ما فيها؛ لعله يخفف ولو قدرا يسيرا من ألمها. وفى ذات الوقت عمل تكرار الأوامر على إثراء المعنى الشعري من خلال ظاهرة التكرار. كما ساهم التكرار في إخراج شحنات الحزن التي تموج في العاطفة، وتتردد في الوجدان، وتستثير الوجدان، وتقرر ما فيه. ذلك أن: "علاقة اللفظ المكرر بالعاطفة علاقة المثير بالمثار، علاقة ليست مخترعة، لذا نجد أثرها في الراثي المعبر عنها بهذا التكرير المقرر لوجده" . [١]

---

(١) التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين علي السيد، صـ ١٨٩، طبعة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٧٨م.

وإذا كانت السيدة صفية ﷺ نوعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ في قصائدها حين جمعت أكثر من أمر وهي تحث عينيها على البكاءَ حين قالت في الأولى: "جُودِي، وَانْدُبِي، فَعُمِّي، وَخُصِّي" وفي الثانية: "بَكِّي" وفي السابعة: "جُودَا، فَاسْحَنْفِرَا، وَاسْكُبَا" ؛ فإن السيدة عاتكة ﷺ في قصائدها الثلاثة جمعت أيضا أوامر عدة لتعبر عن البكاء، وتحث عينيها عليه، فقالت في الأولى: "جُودِي، فاحْتَفِلِي، وسُحّي، واسْجُمِي، وابْكِي" وفي الثانية: "جُودَا، وَانْهَمِرَا، فَاسْحَنْفِرِي، وَاحْتَفِلِي، فَانْهَمِلِي، وَاجْتَهِدِي" وفي الثالثة: "جُودَا، وَسِحَّا، وَابْكِيَا" .

ويتجلى للبحث؛ أن الأوامر التي وردت في قصائد السيدة عاتكة ﷺ أكثر من التي وردت عند السيدة صفية ﷺ ، فضلا عن حشد السيدة عاتكة ﷺ لجملة من المعاني لم ترد عند السيدة صفية ﷺ ، مثل قولها: "فاحْتَفِلِي، وسُحّي، واسْجُمِي، فَانْهَمِلِي، وَاجْتَهِدِي" فكل هذه الأوامر المتعددة، والمعاني المتنوعة؛ تدل على رغبتها الملحة في تحقيق الدمع وسكبه وغزارته، فقد رحل المصطفى ﷺ ، ومن ثم فهي بحاجة إلى دمع غزير ينصب كالمطر، فتطلبا وتحث عينيها على تحقق ذلك، وتعقيب الأمر بأمر آخر؛ للتأكيد على غايتها المطلوبة، ورغبتها في الدمع الكثير.

وإتباع السيدة صفية ﷺ الأوامر بقولها في القصيدتين السادسة والسابعة: "بِحُزْنٍ شَدِيدٍ خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَعْمُودِ" ، "بِوَجْدٍ وَحُزْنٍ شَدِيدِ الأَلَمْ" ؛ كل هذا يظهر حالتها الصعبة، وقلبها الحزين، ونفسها المكلومة، ووجدها المتحسر؛ لذا فهي تنادي عينيها وترغب في تحقيق الدموع ونزولها بغزارة وكثرة. والتشبيه في قولها: "خَالَطَ الْقَلْبَ، فَهُوَ كَالْمَعْمُودِ" أي المشعوف الذي هدّه العشق وأضناه، وهذا يبرز سيطرة الحزن، وهيمنته على القلب، وتخييمه على الجسد؛ حتى زالت عنه قوته، وضعف وخار، وانكسرت عزيمته، ولازم الجسد المكان، وهذا يدل على شدة الحزن، وقوة الألم، ووجع الفراق، وحرقة النفس، ولهيب الفؤاد على فراق المصطفى ﷺ .

وتأتي الصورة التشبيهية التي خلت منها مواضع السيدة عاتكة ﷺ ؛ لتدل على علو تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ عند السيدة صفية ﷺ، وتفوق صورتها، وبروز معناها، وتفاضل بيانها. ذلك أن: "التشبيه والمجاز والكناية والتعريض أقطابٌ يرجع إليها الكثير من محاسن الكلام، وتراها يتفاضل بها البيان، ويعلو بعضُه بعضا. وهذه المحاسن ليست مجرد تفنُّن في اللفظ، أو تأنُّق في اختياره بقدر ما هي حركة داخل المعنى، وانتقالٌ به من منزلة إلى منزلة، فلابد لهذه الفنون أن تصنع شيئا في المعنى وتُحْدِثَ فيه مَزِيَّة" . (١)

ويبدو للبحث أن السيدة عاتكة ﷺ في موضعيها أظهرت شدة ما بها من ألم وحزن وحسرة... من خلال حشد العديد من الأوامر في قصائدها، فجمعت عدة أوامر مختلفة في القصيدة الثانية، فقالت تخاطب العينين: "جُودَا، انْهَمِرَا، اسْحَنْفِرِي، احْتَفِلِي، انْهَمِلِي، اجْتَهِدِي، ابْكِيَا" وكل هذه الأوامر؛ تدل على حرصها على تحقق الدمع، ورغبتها في كثرته، فالأول أرادت من عينيها أن تجود بدمع كثير، ثم لم تقف عند هذا الحد، وإنما طلبت أن ينهمر هذا الدمع انهمارا من الجود والكثرة والغزارة...، ثم أرادت من الدمع أن يكون منصبا كالمطر، وهذه درجة أعلى في الانهمار، ثم طلبت من عينيها أن تنهمر، أي تتصف بالسرعة في جودها وانصبابها وانهمارها، وأخيرا طلبت من عينيها أن تجتهد وتتصف بالنشاط في كل ما تقوم به من دمع وبكاء، فهي لا تريد من عينيها أن تتوقف عن البكاء؛ لذ أكثرت من تكرار الأوامر ونوعت في تعبيرها.

وهذا يدعمه وصفها للدمع في قولها: "بِدَمْعٍ غَيْرِ تَعْذِيرِ، حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجْلٍ غَيْرِ مَنْزُورِ" فدمع السيدة عاتكة ﷺ هنا كثير، وقد زادت في تعبيراتها عن السيدة

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر ، صـ ٤٨٤.

صفية ﷺ ، فهي تريد أن يكون الدمع غير تعذير، أي غير قليل، كما تطلب أن يكون غير منزور، أي غير مقطوع، وكل هذا يؤكد رغبتها في تواصل الدموع، وعدم انقطاعها، واستمرارها حتى الممات، فلا تريد أن تقِل الدموع أو تنقطع أو تتوقف مادامت تنبض وتحيا. كما يدعمه أيضا الاعتراض في القصيدة الثانية في قولها: "عَيْنَيَّ جُودَا طوَالَ الدَّهْرِ، وَاحْتَفِلِي حَتَّى الْمَمَاتِ بِسَجْلٍ" فاعترضت بجملتي: "طوَالَ الدَّهْرِ، حَتَّى الْمَمَاتِ" ؛ لتظهر حالتها الحزينة، ونفسها المتألمة، وجوارحها المتحسرة، وحاجتها إلى الدمع الطويل الممتد، الذي لا ينقطع طوال الدهر، ويظل باقيا حتى الممات.

وهذا كله يكشف عن حالتها، وما بها من ألم وحزن ووجع وحسرة وندم... . ذلك أن"إلغاء الحالة التي يكون عليها الشاعر وهو يتغنى وإغفالها، يجعل الشعر ميتا لا حراك فيه، ومحال أن يستغرق الشاعر الصادق في غنائه، وهو على حالة من الإحساس، ثم لا يكون لهذه الحالة أثر ظاهر في اختيار لفظه، وفي تركيب كلامه، وفي استخدام خصائص لغته للتعبير مريدا أو غير مريد، عن خفي ما يدور في إحساسه ساعة الغناء" . (١)

وقد تفوقت الشاعرتان في نقل تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ من خلال الاستفهام في قولهما في أولى قصائدهما، حيث قالت السيدة صفية ﷺ :

عَيْنِ مَنْ تَنْدُبِينَ بَعْدَ نَبِيٍّ خَصَّهُ اللَّهُ رَبُّنَا بِالْكِتَابِ

وقالت السيدة عاتكة ﷺ :

أنّى، لكِ الوَيْلاتُ! مِثْلُ مُحَمّدٍ فِي كُلّ نائِبَةٍ تَنُوبُ ومَشْهَدِ؟

---

(١) نمط صعب ونمط مخيف، د. محمود شاكر، صـ ٢٢٣، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩٦م.

ويظهر للبحث تفوق السيدة عاتكة ﷺ في معناها؛ نظرا لما تضمنه الاستفهام عندها من جملة من المعاني والدقائق. فاستفهام السيدة صفية ﷺ يدل على التعجب والإنكار والاستعظام، فهي بعد طلبها البكاء والجود من العين؛ راحت تتعجب وتستعظم وتستنكر أن يوجد بعد المصطفى ﷺ من تندُبُه العين أو تبكي عليه أو تجود له بالدموع. بينما الاستفهام عند السيدة عاتكة ﷺ يدل على الاستعظام والإنكار والتعجب والاستبعاد، فهي تستبعد أن يوجد من تبكي عليه العين، وتحزن لأجله النفس بعد المصطفى ﷺ . فهي تستبعد هنا أن تكون هناك مصيبة أو فاجعة كخبر موت المصطفى ﷺ ، فكأنها تناشد العين مرة أخرى بالبكاء؛ لكنها في هذه المرة آثرت الخطاب عن طريق الاستفهام الذي يحمل في طياته الاستبعاد أن تكون هناك مصيبة كفقْد المصطفى ﷺ، فكأنها تقول للعين هيا أقبِلِي وابكي واذرفي الدموع بشدة وغزارة وتدفق...، فلا مصيبة كهذه، ولا فاجعة كهذه، ولا وقْع كهذا، ولا نائبة كهذه، ولا حادثة كهذه...، فهيا أيتها العين اذرفي دموعك وأخرجيها من دون توقف أو انقطاع.

والسيدة صفية ﷺ اكتفت بالاستفهام في: "مَنْ تَنْدُبِينَ" لاستنكار وجود من يستحق البكاء والندب والتوجع بعد المصطفى ﷺ . بينما السيدة عاتكة ﷺ لم تقف عند حد نداء العين والاستفهام عن بكائها وندبها؛ وإنما آثرت العموم وأتت بلفظ: "الويلات" للدلالة على نفي وجود خطب أو نازلة أو حادثة أو شدة من شدائد الدهر... كفقد ورحيل وفراق المصطفى ﷺ .

والسيدة صفية ﷺ أوردت لفظ المصطفى ﷺ منكرا؛ لتعظيمه وتفخيمه وذِكر النبوة التي زادت المصطفى ﷺ علوا وفخرا وشرفا وتكريما وتعظيما... . بينما السيدة عاتكة ﷺ ذكرت المصطفى ﷺ باسمه؛ للمزيد من التخصيص له، وإحضاره بعينه، وحبها وتلذذها لذِكر اسمه وترديده في نفسها وقلبها من شدة ما داهمها من حزن ووجع وفاجعة. كما أنها ترغب في استحضار الحدث بذاته كاملا بما انطوى عليه من خطب وهول وفزع... .

وفي الكلام إيجاز وطي للمشهد الذي حدث من رحيل المصطفى ﷺ وفراقه؛ وهذا لضيق نفسها، ومكمن الحزن داخلها، وعمق الأسى الذي لم يمكنها من التفصيل في شأن الحدث والخطب والواقعة والفاجعة... التي ألمت بها. وقد تلاحم التعريف بلفظ: "محمد" مع ما تستشعره من أسى وحزن وحسرة وندم وألم...؛ مما دفعها إلى ذكر المصطفى ﷺ باسمه؛ لبيان منزلته في نفسها، وحبها له، ولذة قلبها حينما يردد اسمه ﷺ ، وينطق اسمه ﷺ فضلا عن رؤيته والنظر إلى وجهه ﷺ ، فما بالنا وقد رحل إلى ربه !؛ ومن ثم لا مصيبة كهذه، ولا خطب كهذا.

كما أنها آثرت العموم مرة أخرى في قولها: "فِي كُلّ نائِبَةٍ تَنُوبُ ومَشْهَدِ" وهذا يدل على العموم، ويؤكد الاستفهام في الشطر الأول، ويعزز قيمته، ويقوّي مدلوله، فكل المصائب والنوائب مهما عظُمت، والنوازل اشتدت، والويلات والحوادث أوجعت؛ فهي تهون أمام فقْد النبي ﷺ، وهذا أبلغ في الحزن، وأعمق في التفجع، وأكمل في البكاء، وأدل على التحسر، وأشد في التوجع، وأقوى في الندب. وقولها: "تنُوبُ" بالتعبير بالمضارع؛ يؤكد العموم الذي جاء في الأول، فأي مصيبة ونائبة تأتي مستقبلا؛ فهي لا شيء أمام فقْد المصطفى ﷺ . وختم البيت بكلمة: "مشهد" يدل على أن أي حادثة تكون في هيئة مشهد عظيم جلل يخطف الأبصار ويلفتها؛ فهي هينة يسيرة أمام فقد المصطفى ﷺ ، ومن ثم اختتمت السيدة عاتكة ﷺ القصيدة بقولها:

هلّا فَداكَ المَوْتَ كُلّ مُلعّنٍ شِكْسٌ خلَائقُهُ لئيمُ المَحْتِدِ

والسيدة صفية ﷺ نوعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ من خلال تكرار ذِكر صفات المصطفى ﷺ في القصيدتين الأولى والثانية، فقالت في الأولى: "النّبِيّ المُطَهّر الأوّاب" وفي الثانية: "هُو الماجِدُ السيّدُ الطّيبُ" وتكرار الصفات دون الفصل بـ"الواو" بينها؛ يدل على كمال المصطفى ﷺ واكتماله في جميع الصفات وأنها اجتمعت فيه دفعة واحدة، فهو الماجد، أي الحسن الخلق السمح، السيد، أي الشريف الكريم المُكرم في قومه، الطيب، أي صاحب الخلق الطيب والقلب النقي، وهو المطهر

من كل عيب، وهو الأواب الكثير الرجوع إلى الله ﷻ ، وكل هذا تكامل في المصطفى ﷺ . بينما السيدة عاتكة ﷺ آثرت الإتيان بـ" الواو" في ذكرها لصفات المصطفى ﷺ في قصيدتها الثالثة، فقالت:

عَلَى الْمُصْطَفَى بِالنُّورِ مِنْ آلِ هَاشِمِ

عَلَى الْمُصْطَفَى بِالْحَقِّ وَالنُّورِ وَبِالرُّشْدِ بَعْدَ الْمُنْدَبَاتِ الْعَظَائِمِ

وَسِحًّا عَلَيْهِ وَابْكِيَا مَا عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْمُحْكَمَاتِ

وهذا يدل على كمال اتصافه ﷺ بصفات وجدت كل صفة فيه ﷺ على حدة، كما أنها حشدت مجموعة من الصفات المتنوعة المتعددة التي وصفت بها المصطفى ﷺ ، فهو من خصه الله ﷻ بالنور من بين آل هاشم، والنور المراد به وحي السماء والقرآن الكريم، قال . تعالى . ﴿ فالّذِينَ آمَنُوا بِهِ وعَزّرُوهُ ونَصَرُوهُ واتبّعُوُا النّورَ الذِي أنزِلَ مَعَهُ...﴾ (١) ، وهو من خصه الله ﷻ بالدعوة إلى الحق والعدل، وإلى الهدى والطريق المستقيم، وإلى إرشاد الناس إلى الخير وإخراجهم من ظلمات الضلال التي كانوا فيها.

كما أن السيدة عاتكة ﷺ قد عمدت إلى تكرار جملة: "عَلَى الْمُصْطَفَى" أكثر من ورودها عند السيدة صفية ﷺ؛ مما يشير إلى أن حب المصطفى ﷺ قد تغلل في أحشائها، كما يومئ التكرار إلى رغبتها في تكرار أمر الاصطفاء؛ لبيان مزيد من الخصوصيات التي اختص الله ﷻ بها المصطفى ﷺ، فقد اصطفاه بالنور والوحي والقرآن من بين آل هاشم، كما اصطفاه بإقامة الحق، ونشر النور، والدعوة إلى الهدى، والحث على الرشد، والدعوة إلى الخير والتراحم.

---

(١) سورة الأعراف، الآية ١٥٧.

كما أن السيدة عاتكة ﷺ تفوقت على السيدة صفية ﷺ من خلال ذِكر المصطفى ﷺ ببعض أسمائه التي لم ترد عند السيدة صفية ﷺ في مواضعها، فقالت: "سَحًّا علَى خيْرِ البَرِيّةِ أحْمَدِ، وابْكِي علَى نُورِ البِلَادِ مُحَمّدِ" ولفظ "أحمد" يَحْتَمِلُ مَعْنَيَيْنِ أَحَدُهُمَا: الْمُبَالَغَةُ فِي الْفَاعِلِ، يَعْنِي أَنَّهُ أَكْثَرُ حَمْدًا للَّه مِنْ غَيْرِهِ، وَثَانِيهِمَا: الْمُبَالَغَةُ مِنَ الْمَفْعُولِ، يَعْنِي أَنَّهُ يُحْمَدُ بِمَا فِيهِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالْأَخْلَاقِ الْحَسَنَةِ أَكْثَرَ مَا يُحْمَدُ غَيْرُهُ" .[1] ولفظ محمد" اسْمٌ مَفْعُولٍ مِنْ حَمَّدَ الْمُضَاعَفِ الدَّالِ عَلَى كثْرَةِ حَمْدِ الْحَامِدِينَ إِيَّاهُ كَمَا قَالُوا: فُلَانٌ مُمَدَّحٌ، إِذَا تَكَرَّرَ مَدْحُهُ مِنْ مَادِحِينَ كَثِيرِينَ".[2] وهذا التنوع في أسماء المصطفى ﷺ لم يتحقق عند السيدة صفية ﷺ، والتعريف بالعلمية؛ يدل على رغبة السيدة عاتكة ﷺ في تعداد أسماء المصطفى ﷺ وحبها لذكره باسمه وبيان حمده الكثير لربه، وكذا حمد الآخرين له؛ مما يزيد من مكانته ﷺ في نفسها. كما جاء الاعتراض في الجملتين في قولها: "خير البرية، نور البلاد" ؛ لبيان عنايتها بذكر فضل المصطفى ﷺ والتنبيه على كونه خير الناس، وعلى كونه جاء نورا للبلاد كلها.

(١) مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ٢٩/ ٥٢٨، طبعة/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة/ ثالثة ١٤٢٠ هـ.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٢٨/ ١٨٤، طبعة/ الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤ هـ .

المبحث الثاني

تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الشاعرتين في بيان منزلته ومكانته ﷺ

من مظاهر الرثاء؛ اتجاه الراثي إلى ذِكر مكانة المرثى، وبيان منزلته، والإشادة بقدْره وموضعه في النفوس عامة، وفي نفس الراثي خاصة، وكل هذا يزيد من حزن الراثي، ومن شدة الفقد على نفسه، ووقع الحزن على قلبه، وأثر الفراق على مشاعره؛ لأن الشاعر في هذه الحالة لا يبكي الراحل فقط؛ وإنما ينعي ويبكي ويتقطع من داخله على فقيده الذي ارتحل بما له في نفسه وعشيرته من مكانة وشرف وعز وسيادة... وكل ما تفرد به وناله في حياته من رفعة ومنزلة. وهذا ما فعلته كل من السيدة صفية وعاتكة، فأي بشر يمكن أن يتبوأ مكانة ومنزلة...مثل مكانة المصطفى ﷺ ؟!، فاتجهت كل منهما إلى ذِكر قدْره ﷺ، حيث قالت السيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى:

عَيْنِ مَنْ تَنْدُبِينَ بَعْدَ نَبِيٍّ خَصَّهُ اللَّهُ رَبُّنَا بِالْكِتَابِ
مُشْفِقٍ نَاصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْنَا. صَادِقِ الْقِيلِ طَيِّبِ الْأَثْوَابِ
فَاتِحٍ خَاتَمٍ رَحِيمٍ رَءُوفٍ. رَحْمَةٍ مِنْ إِلَهِنَا الْوَهَّابِ [1]

وقالت في الثالثة: والأبيات من بحر الخفيف:

أَعْظَمِ النَّاسِ فِي الْبَرِيَّةِ حَقًّا، سَيِّدِ النَّاسِ حُبُّهُ فِي الْقُلُوب

(١) مشفق: الشفق والشفقة: أن يكون الناصح خائفا على المنصوح أن يناله مكروه. شفيق: الشفيق: الناصح الحريص على صلاح المنصوح. العين ٥/ ٤٤.

وقالت في السابعة:

عَلَى صَفْوَةِ اللَّهِ رَبِّ الْعِبَادِ. وَرَبِّ السَّمَاءِ وَبَارِي النَّسَمْ
عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْهُدَى وَالتُّقَى وَلِلرُّشْدِ وَالنُّورِ بَعْدَ الظُّلَمْ
عَلَى الطَّاهِرِ الْمُرْسَلِ الْمُجْتَبَى رَسُولٍ تَخَيَّرَهُ ذُو الْكَرَمْ

بينما السيدة عاتكة ﷺ قالت في القصيدة الثالثة:

عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْبِرِّ وَالْعَدْلِ وَلِلدِّينِ وَالإِسْلامِ بَعْدَ الْمَظَالِمِ
عَلَى الطَّاهِرِ الْمَيْمُونِ ذِي الْحِلْمِ وَذِي الْفَضْلِ وَالدَّاعِي لَخَيْرِ التَّرَاحُمِ

اتجهت السيدة صفية ﷺ إلى بيان منزلة المصطفى ﷺ ومكانته، فنوعت في التعبير عن أثر فقْده ﷺ، فآثرت في مواضعها تعداد صفات المصطفى ﷺ . ومن الملاحظ في مواضعها التنوع في ذكر الصفات وإيثار الواو بينها تارة، وتعدادها متتابعة دون الواو تارة؛ وذلك للإحاطة بصفات المصطفى ﷺ وبيان اكتماله في الصفات، وأن من الصفات ما اكتمل فيه دفعة واحدة، ومنها ما اتصف به كل صفة على حدة. وهذا يدل على رغبة السيدة صفية ﷺ في حشد عدد من الصفات، والتنويع فيما بينها، وذلك للإشادة بالمصطفى ﷺ، والعمل على إقران الصفات وإتباع بعضها في إثر بعض؛ لبيان ما تفرد به ﷺ من صفات جليلة عظيمة.

أما السيدة عاتكة ﷺ فإنها لم تغرد ـ في قصيدتها ـ بعيدا عن هذا الحقل الوصفي الذي يبرز مكانة المصطفى ﷺ وما اتسم به من صفات، فنوعت في التعبير عن أثر فقْده ﷺ؛ فجمعت له ﷺ جملة من الصفات التي تدل على ما فعله للبشرية من أمور، وما أضفاه على الأمة من إسلام وسماحة وحلم وقيم وأسس وعدل... . وقد آثرت الوصل بالواو في بعض الصفات، وترك الواو في صفات أخرى، فوصلت

بالواو في وصف المصطفى ﷺ بالبر والعدل والتقى والإسلام والندى والفضل والدعوة للتراحم؛ وهذا يدل على اكتمال كل صفة من تلك الصفات في المصطفى ﷺ على حِدة، وأنه ﷺ تميز وتفرد بكل صفة من هذه الصفات، وهذا يدل على مكانته ومنزلته العالية ﷺ . ثم آثرت الفصل في قولها: "الطَّاهِرِ الْمَيْمُونِ ذِي الْحِلْمِ" ؛ لبيان اكتمال تلك الصفات في المصطفى ﷺ جملة واحدة، فهو المُطهر الطاهر الشريف، وهو المبارك الميمون الذي جاء بركة ويُمنا للناس أجمعين، وهو صاحب الحلم واللين والعفو، فهذه الصفات اكتملت فيه ﷺ دفعة واحدة.

والسيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى ظلّلت كلامها بظل أضفى على الصفات مزيدا من التأكيد والرسوخ؛ من خلال الكناية في قولها: "طَيِّبِ الْأَثْوَابِ" كناية عن كرم المصطفى ﷺ وسماحته وحلمه وحسن خلقه وطيب قلبه ورحمته وطهارته...، فإذا كانت الأثواب تتصف بالحسن والطيب؛ فمن باب أولى من يرتدي الأثواب يكون في علياء من الطهارة والحسن... وهذا ما جسدته الكناية، ذلك أن: "الصفةَ إذا لم تأتِكَ مُصرَّحًا بذِكْرِها، مكشوفًا عن وجهها، ولكن مدلولًا عليها بغيرها، كان ذلك أفخمَ لشأنها، وألطفَ لمكانِها".(١) وكل هذا يُعمق الحزن، ويزيد في الأسى، ويجسد الألم على من تنزّه وتطهر وتطيب وتزكى في صفاته ﷺ حتى صارت أثوابه أطيب الأثواب وأطهرها وأزكاها وأنقاها... .

بينما السيدة عاتكة ﷺ آثرت التأكيد والتقوية في عرضها لصفات المصطفى ﷺ عن طريق إيثار إدخال"ذي" على الصفات في قولها: "ذِي الْحِلْمِ وَالنَّدَى وَذِي الْفَضْلِ" للتأكيد على تلك الصفات، والمبالغة في حلمه وعطاياه وفضله ﷺ ، فقولنا: "هو ذو كرم" أبلغ من قول: "هو كريم"؛ لما تحمله الصيغة الأولى من مبالغة وتأكيد وأن الصفة صارت من طبع الموصوف وسجاياه، وملاصقة له لا تذهب عنه أبدا، وهذا

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، صـ ٣٠٦.

يعُطي إيحاء بشحنة الألم التي تغلغلت في نفس السيدة عاتكة ﷺ على فراقه ورحيله ﷺ الذي تطبّع وتحلى وتجمل وتكمّل بتلك السجايا والصفات.

والسيدة صفية ﷺ في الموضع الثاني آثرت التعبير بصيغة التفضيل في: "أَعْظَمِ النَّاسِ فِي الْبَرِيَّةِ حَقًّا" ؛ لما تحمله الصيغة من مزيد اختصاص وتأكيد على تلك العظمة والمكانة والمنزلة...التي تبوأها المصطفى ﷺ، فهو أعظم مخلوق بين الناس. كما تخيرت الاعتراض في جملة: "في البرية" فلم تقل: "أعظم الناس حقا" وإنما آثرت الاعتراض؛ للتنبيه والتأكيد على أن المصطفى ﷺ انفرد من بين البشرية بتلك العظمة، واختص بتلك المكانة، وهذه المنزلة التي لا يمكن أن يصل إليها بشر، فهو أعظم الناس، وسيد الناس، وحبه تغلغل في القلوب. والتعريف بالإضافة؛ للدلالة على العموم والإحاطة بجميع الخلق، وأنه ﷺ أعظمهم جميعا، وسيدهم كلهم. وقد آثرت في التعبير هنا ألفاظ العموم: "أَعْظَمِ النَّاسِ، فِي الْبَرِيَّةِ، سَيِّدِ النَّاسِ، حُبُّهُ فِي الْقُلُوبِ" وكل هذا يدل على ما تبوأه ﷺ من منزلة من قِبل الله ﷻ ، فقد خصه وجعله أكرم البشرية وأطهرها وأشرفها وسيدها، كما نال مكانة ومنزلة في قلوب العباد، فحبه في قلوب الخلق أجمعين. كما اتكأت على التأكيد في قولها: "حقّا" وهي كلمة بسيطة في اللفظ رحبة في المعنى، فهي تؤكد على أن المصطفى ﷺ أعظم الخلق بلا منازع، ولا مدافع، ولا وجود من يدفع هذا الأمر أو ينكره، فهو حق ثبت وتقرر ووجب لدى الجميع.

بينما السيدة عاتكة ﷺ قد اعتمدت على التعريف والجمع والإضافة في الصفات التي أوردتها للمصطفى ﷺ؛ للإشارة إلى تفرده فيها، وأنه المعروف المشهور بها، وأن هذه الصفات كثيرة وعظيمة. والإضافة في قولها: "وَالدَّاعِي لَخَيْرِ التَّرَاحُمِ" زادت المعنى حسنا، وأكسبته منقبة، حيث لم تقل: "والداعي للتراحم" للإشارة إلى ما اتسم به المصطفى ﷺ من جمال الدعوة إلى الخير، فهو لم يدْع للتراحم فقط؛ لأن التراحم وحده قد يتعرض للنقص والتقليل بين الابن وأبيه أو أمه أو العكس، أو بين القريب

وقريبه، والخليل وخليله، والحبيب وحبيبه، وبالأحرى يحدث هذا حال إيمان أحدهما بدعوة المصطفى ﷺ وكفر الآخر؛ لذ دعا ﷺ لخير التراحم الذي يقتضي الصلة والتواصل والبر وعدم القطيعة.

والسيدة صفية ﷺ في القصيدة السابعة اعتمدت على الاستعارة في: "عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْهُدَى... وَالنُّورِ بَعْدَ الظُّلَمْ" فاستعارت النور لما جاء به المصطفى ﷺ من الإيمان والإسلام اللذين يحملان الناس إلى الهدى والاستقامة. واستعارت الظلم للضلال والغي والكفر الذي كانت فيه البلاد في ذلك الوقت. والاستعارة تكشف عن دعوة المصطفى ﷺ، وكيف أنها نقلت العباد من حَلك الظلمات والسواد، وانعدام البصر والبصيرة؛ إلى نور الهدى، وطريق الحق والإيمان، والسير على بصيرة ورؤيا واضحة يشق فيها البصر طريقه في النور الواضح البين.

وفي الكلام لمحة جميلة، ولفتة دقيقة، فالسيدة صفية ﷺ تخيرت لفظ "الظُّلَمْ" وهو من صيغ المبالغة؛ مما يدل على أنها مظالم كثيرة، وظلمات متعددة ومتنوعة، وأنها قصدت بذلك كل المظالم التي في الكون، سواء المظالم التي بين العباد بعضهم البعض مما كان سائدا في الجاهلية من قتل وسفك وأكل حقوق... ، والمظالم التي بين العباد وبين خالقهم مما كانوا فيه من كفر وضلال وعبادة أوثان...، وكل المظالم التي في الكون آنذاك. ومما يدعم ذلك ويقويه؛ أنها ركزت على صفات الرسالة في البيت الآتي، فقالت:

عَلَى الطَّاهِرِ الْمُرْسَلِ الْمُجْتَبَى رَسُولٍ تَخَيَّرَهُ ذُو الْكَرَمْ

وهذا يدل على أنها قصدت جميع المظالم التي في الكون، ومن ثم فإن الله ﷻ اجتبى المصطفى ﷺ وأرسله وتخيره؛ كي يقضي على كل المظالم الموجودة، ويبعث في الناس روح الإيمان، وسماحة الإسلام؛ فيعرفوا خالقهم ويخرجوا من ضلالهم وشهواتهم، وكذا يُقيموا العدل ويتراحموا فيما بينهم.

بينما السيدة عاتكة ﷺ رغم استعارتها المظالم للضلال والغي الذي كان سائدا في الجاهلية في قولها: "عَلَى الْمُرْتَضي لِلْبِرِّ... وَالإِسْلامِ بَعْدَ الْمَظَالِمِ"؛ إلا أنها تخيرت لفظ "الْمَظَالِمِ" دون "الظُّلَمْ" وهذا يشير إلى أنها قصدت المظالم التي بين العباد، وما كان سائدا في ذلك الوقت من سفك وقتل واعتداء وأكل حقوق... وكل ما وُجد بين العباد من مظالم. ومما يدعم ذلك ويقويه؛ أنها ركزت على صفات الحلم واللين والفضل والتراحم والتواصل... في البيت الآتي، فقالت:

عَلَى الطَّاهِرِ الْمَيْمُونِ ذِي الْحِلْمِ وَذِي الْفَضْلِ وَالدَّاعِي لَخَيْرِ

فيظهر جليا تركيزها هنا على صفات الحلم واللين والفضل... التي تحلّى بها المصطفى ﷺ؛ كي يبعثها في أمته حتى يتعايشوا بالحلم واللين فيما بينهم، ويكفوا عن المظالم وسفك الدماء. وكذا ركزت على دعوة المصطفى الناس ﷺ لخير التراحم والتواصل والترابط... الذي يحملهم على البر والصلة والود والحب...؛ ومن ثم ينتهوا عن أكل الحقوق والقطيعة والبغضاء...وغيرها مما ساد بينهم.

والسيدة صفية ﷺ زيّنت قصيدتها السابعة بالطباق في: "وَلِلرُّشْدِ وَالنُّورِ بَعْدَ الظُّلَمْ" فطابقت بين النور والظلم؛ للإشارة إلى ما قام به المصطفى ﷺ من دعوة أخرجت الناس من الظلمات التي غرقوا فيها إلى نور الهدى والصلاح والفلاح. كما كشف الطباق عن تمام النور الذي اتسمت به دعوة المصطفى ﷺ ، وأنها أزالت كل الظلمات التي كانت موجودة، فمن بقي في الظلمات؛ فإنما العيب في بصره وقلبه اللذين لم يبصرا النور، ولم يريا الظهور، ولم ينظُرا إلى مسالك الهداية والرشاد.

بينما السيدة عاتكة ﷺ قد آثرت الطباق المعنوي في: "وَلِلدِيْنِ وَالإِسْلامِ بَعْدَ الْمَظَالِمِ" وهو طباق خفي؛ لأن الذي يقابل المظالم هو النور، والشاعرة هنا جمعت بين المظالم والإسلام؛ لما يستلزمه الإسلام من النور والهداية والوضوح... وكلها معان مضادة للمظالم. وقد آثرت الشاعرة التعبير بـ"الإسلام" ؛ للإشارة إلى أن الإسلام

دين ضد الظلم، ولا يعرف الوحشية، ولا ظلام فيه، فمن أراد أن يبصر الطريق الصحيح، ويهتدي بالنور، ويخرج من كل مسالك الوحشة، وينجو بنفسه من كل المظالم؛ فعليه بالإسلام، ففيه نور البصر والبصيرة. فتأمل كيف ساهم الطباق المعنوي الذي آثرته السيدة عاتكة ﷺ؛ في إبراز ملامح الدين الإسلامي، وأسُس معالمه في كونه مضادا للمظالم بأنواعها، فهو طريق النور، ومسلك الهداية، والمخرج من مظالم الضلال، والنور الذي من يبصره فقد أبصر الطريق الواضح البين الظاهر الخالي من كل العثرات، ومن ثم يهتدي إلى سفينة النجاة ويصل إلى الأمان، ويفوز بالجنان.

ومن الواضح أن السّمة التي غلبت عند الشاعرتين في تعداد صفات المصطفى ﷺ؛ تركيزهما على صيغة "فاعل" في: "فاتح، خاتم، صادق، ناصح، طاهر" لما توحيه من المبالغة والتعظيم، وأن المصطفى ﷺ بلغ حدا عاليا في هذه الصفات، فلا فاتح بعده، ولا نبي مرسل بعده، ولا صادق يخاف على الناس بعده، ولا ناصح أمين صادق في نصحه بعده، ولا طاهر مطهر من كل عيب بعده ﷺ ، وهذا يدل على علو قدْر المصطفى ﷺ ، ويزيد من فداحة الخطب، ومرارة المصاب، ووقع الفجيعة؛ لخسران من اتصف بهذه الصفات التي ليس لها مثيل وبلغ مبلغا عظيما فيها.

وهكذا اتخذت الشاعرتان من الرثاء وسيلة لتعداد صفات المصطفى ﷺ، والوقوف مع خصاله التي لا تعد ولا تحصى، رغبة منهما في إظهار المكنون في النفس، والمخبوء في الأعماق؛ لبيان حرارة الفقد، وآلام الفراق، وبكاء الرحيل، وتجسيد عظيم الخسارة. وتلك عادة الشعراء في الرثاء، فهم لا يكتفون بإخراج الشعور الحزين المتحسر... المخبوء في أعماقهم فحسب؛ وإنما يضيفون إليه إشارات كثيرة للميت تزيد من ألم البكاء، وحدة الحزن، وشدة الفراق، وقوة الأمر على النفس، فهم كما يبكون عليه بما يربطهم به من روابط، فكذا يبكون على ذهاب تلك الأمور بذهابه، وفقدانها بفقده، ورحيلها برحيله، وخسارتها بخسارته، وضياعها

بضياعه، وموتها بموته، ومن ثم فالخطب فدح، والأمر جلل، والمصيبة عظمى، وكل هذا يعد احتفالا بالميت، وتمجيدا لذكراه.

وقد اعتمدت الشاعرتان في تعدادها لصفات المصطفى ﷺ على أسلوب التكرار سواء تكرار أحرف أو ألفاظ كلفظة: "عَلَى، المرتضى، الطاهر" في قولهما: "عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْهُدَى، عَلَى الطَّاهِرِ الْمُرْسَلِ، عَلَى الْمُرْتَضَى لِلْبِرِّ، عَلَى الطَّاهِرِ الْمَيْمُونِ" وذلك لما يحمله التكرار من استجابات وانفعالات يساعدا في استخراج كل ما يجيش في النفس من صفات للمرثي، ومن مناقب له. وهذا لا شك أدعى في خروج الحزن المكبوت في الصدور، وبث مشاعر العاطفة المكلومة، ونقل الأحاسيس الجياشة، وما يعتلج القلب من آهات، ويزاحم الأعين من دموع. ولهذا قالوا: "وأولى ما تكرر فيه الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة وشدة القرحة التي يجدها المتفجع، وهو كثير حيث التمس من الشعر وجد" . (١)

كما أن الشاعر حينما يكرر كلمة؛ فإنما يكرر الأنات، ويستسكب الأحزان، وينشر الدموع، ويبث الآلام، وينقل الأوجاع... التي يرغب في إخراجها واسترسالها ودفعها ونشرها... كما أن التكرار يحمل الكثير من الاستجابات المطلوبة التي يبغي على الشاعر أن يشاركها مع من حوله، وهذا كله وثيق الصلة بالوجدان، ومنبعه شدة الألم والحسرة والفجيعة... كما أن الشاعر حينما يركز على صفات المرثي، ويعدد مواطن الكرم والشجاعة والمروءة والوفاء والخير وحماية الجار والسيادة والشرف والمكانة...؛ إنما يهدف من وراء هذا إلى بيان الخسارة العظيمة، والمصيبة الكبرى، والفقد الأليم الذي حل بعد رحيله. قال الدكتور. شوقي ضيف: "وكل ذلك احتفال بالميت، وتمجيد وبقيا عليه وعلي ذكراه، وكان أهم ما يخلده في رأيهم هذه الأبيات

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق ٢/ ٧٦.

التي يصوغ فيها الشاعر محاسنه ومناقبه، وكأنه يريد أن يحفرها في الأذهان حفرا حتى لا تُمحى على مر الزمان، حتى لا يصيبها شيء من زوال أو نسيان، إنها كل ما يملك ليُبقي على الميت بينهم وليجعله دائما ماثلا أمامهم" . [١]

(١) الرثاء، د. شوقي ضيف، صـ ٥٥، طبعة/ دار المعارف، القاهرة، طبعة/ رابعة د. ت.

المبحث الثالث

تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الشاعرتين في بيان كرمه ﷺ على المحتاجين

المصطفى ﷺ كان أكرم الناس، وأجود الخلق، وأسخى أهل الأرض، وأفضل من يجود على المحتاجين، فإن كان فقْده قد أصاب الشاعرتين بالحزن والوجد والألم...، فكيف وقْعه على المحتاجين والضعفاء والفقراء!؟ ؛ فقد كان ﷺ لهم خير معين، وأفضل مساعد، وأعظم ناصر...؛ لذا فالبكاء والحزن والتحسر... سيصدر عن هؤلاء جميعا، فهم سيبكون على من كان ملجأهم وملاذهم ومأواهم... في كل وقت ونازلة وخطب. ومن هنا اتجهت كل من السيدة صفية وعاتكة ﷺ إلي تصوير حال هؤلاء، وبيان كرم المصطفى ﷺ وعطفه عليهم، حيث قالت السيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية:

فَبَكِّي الرّسُولَ! وحُقّتْ لهُ شُهُودُ المدينَةِ والغُيّبُ!
لِتَبْكِيكَ شَمْطاءُ مَضْرُورةٌ، إذَا حُجِبَ النّاسُ لا تُحْجبُ
لِيَبْكِيكَ شَيْخٌ أبُو وِلْدَةٍ يطُوفُ بِعِقْوَتِهِ أشْهَبُ
ويبكِيكَ ركْبٌ إذا أرْمَلُوا، فلَمْ يُلْفَ ما طَلَبَ الطُّلّبُ [1]

(١) شمطاء: التي شاب شعرها وابيض. القاموس المحيط ٢/ ٢٦٧. بعقوته: العَقْوة: ما حول الدار والمحلة. العين، باب/ عقو٢/ ١٧٥. أشهب: إذا غلب البياض في رأسه على السواد. تهذيب اللغة، باب/ هجر٦/ ٥٥. الركب: أصحاب الإبل في السفر وهم العشرة فما فوقهم. المخصص، باب/ سوط الخيل٢/ ١٠٦. أرملوا: هلكت أموالهم وفقدوا زادهم. القاموس المحيط، فصل/ النون١/ ٦٥٦.

وقالت في القصيدة الرابعة: والأبيات من بحر الوافر:

كَرِيمِ الْخِيمِ أَرْوَعِ مَضْرَحِيٍّ، طَوِيلِ الْبَاعِ مُنْتَجَبٍ نَجِيبِ!

ثَمَالِ الْمُعْدَمِينِ وَكُلِّ جَار وَمَأْوَى كُلِّ مُضْطَهَدٍ غَرِيبِ (١)

وقالت في القصيدة الخامسة: والأبيات من بحر الخفيف:

أَبْلَجٌ صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ، صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْتَهَى الرُّوَّادِ!

عَاشَ مَا عَاشَ فِي الْبَرِيَّةِ بَرًّا، وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ الْمُرْتَادِ (٢)

بينما قالت السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الأولى:

مَنْ ذَا يفُكّ عَنِ المُغلّلِ غُلّهُ بعْدَ المَغيّبِ فِي الضّرِيحِ المُلْحَدِ؟

أمْ مَنْ لِكلّ مُدَفّعٍ ذِي حاجَةٍ، ومُسَلْسَلٍ يشْكُو الحدِيدَ مُقَيّدِ؟ (٣)

وقالت في القصيدة الثالثة:

أعيْنَيّ ماذَا بعْدَ ما قَدْ فُجِعْتُمَا بِهِ، تَبْكِيَانِ الدَّهْرَ مِنْ وُلْدِ آدَمَ؟

---

(١) الخِيم: الشيمة، وهي الطبيعة والخلق. تهذيب اللغة ٧/ ٢٤٧. مضرحِي: المضرحي: الأبيض من كل شيء. العين ٣/ ١٠٤. الباع: امتداد الشيء. مقاييس اللغة ١/ ٣١٨. منتجب: من قولهم: انتجب فلانا: استخلصه واصطفاه. نجيب: من قولهم: رجل نجْب: أي سخي كريم. مقاييس اللغة ٥/ ٩٩٩. ثَمال: أي المغيث. الصحاح ٤/ ١٦٤٩.

(٢) أبلج: ابيضاض ما بين الحاجبين ونقاؤه. جمهرة اللغة ١/ ٢٦٩. السجية: الخلق والطبيعة. مختار الصحاح ١/ ١٤٣. الرواد: جمع رائد، وهو الذي يتقدم القوم يبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث. لسان العرب ٣/ ١٨٧. نُهبة: الغنيمة والعطية. لسان العرب ١/ ٧٧٣.

(٣) الضريح: قبر بلا لحد. المخصص ٢/ ٧٨. الملحد: من اللحد: وهو الشق في جانب القبر. تهذيب اللغة ٤/ ٢٤٣. مدفّع: أي يدفع ويحقر. العين ٢/ ٤٦. المسلسل: مقيد بالسلسلة: وهي دائرة من حديد. لسان العرب ١١/ ٣٤٥.

فَجُودَا بِسَجْلٍ وَانْدُبَا كُلَّ شَارِقٍ رَبِيعَ الْيَتَامَى فِي السِّنِين الْبَوَازِمِ! (١)

إنها الأنثى التي تمتلك إحساسا قويا وعاطفة شجية؛ فتُبادر بنقل ما يجيش في خواطرها وأحاسيسها وأعماقها. وها هي السيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية؛ تبتدئ التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ؛ ببيان كرمه على المحتاجين، فقالت: "لِتَبْكِيكَ شَمْطاءُ" فأتت بصيغة الأمر بالفعل المضارع المقرون بلام الأمر، وهو يدل على الطلب المتجدد المستمر، وهو هنا من وضع الإنشاء موضع الخبر، والمعنى "ستبكيك شمطاء"؛ بدليل قولها في الأبيات الآتية" ويبكيك ركب". وجاء الإنشاء في موضع الخبر؛ للاهتمام بأمر البكاء الذي سيحدث في ذلك الوقت، فالسيدة صفية ﷺ تبين مدى ما سيكون من بكاء على المصطفى ﷺ، وهذا البكاء سيتميز بالاستمرارية والتجدد والحدوث، وسيكون بكاء عاما وشاملا يصدر من كل شمطاء. وهذا ما أكده التنكير في" شَمْطاءُ" لإفادة العموم، فكل شمطاء في جزيرة العرب ستبكي على رحيل المصطفى ﷺ ، وبكاؤها لم ينقطع ولن ينقطع، وإنما سيظل في تجدد واستمرار.

بينما السيدة عاتكة ﷺ نوعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ، فابتدأت بالاستفهام في قصيدتها الأولى، فقالت: "مَنْ ذَا يفُكّ عَن المُغلّلِ غُلّهُ" فبدأت تستفهم عن المقيد في الأغلال، فمن سيفك عنه قيده؟ ويزيل عنه رِقه؟، وينقذه من عبوديته؟، ومن سيكون الملاذ والمنجى والمأوى لهذا المقيد في القيد؟ بعد رحيل المصطفى ﷺ .

والاستفهام هنا لغرض الاستبعاد، فهي تستبعد وجود من يدفع عن المقيد قيده، ومن يلبي له حاجته، وينصره مِن مذلته وقيْده بعد رحيل المصطفى ﷺ . وفى هذا

(١) شارق: أي كل يوم تطلع فيه الشمس. المحكم والمحيط الأعظم ٦/ ١٦٣. البوازم: أي الشدائد. لسان العرب ١٢/ ٤٩.

إشارة إلى منزلته ﷺ وكرمه على الضعفاء، وأنه كان المعين لهم، وأنهم كانوا يفرون إليه في كل الشدائد والنوازل، ويجدون فيه المعين والناصر والمدافع، فمن لهم بعد رحيله ﷺ !؟. ويؤكد هذا قولها في الشطر الثاني: "بِعْد المَغِيّبِ فِي الضّرِيحِ المُلْحِدِ" فلم يبق أحد لهؤلاء الضعفاء المغلولين المذلولين المنكسرين... بعد دفْن المصطفى ﷺ ، فقد كان هو الملاذ لهم، وهو الناصر والمعين، وهذا يزيد من البكاء، ويؤجج من الحزن، فالجميع يبكي ويتألم ويحزن على رحيل المصطفى ﷺ. ويحتمل أن يكون الاستفهام هنا للحيرة والتردد، فالسيدة عاتكة ﷺ تُظهر ما ألمّ بها من حيرة وتردد ودهشة بشأن هذا المُغلل الذي أصبح لا سند له ولا معين ولا ناصر...، فهي في حيرة من غله الذي سيصبح ويستمر فيه، فالحزن يعتصرها من عدة وجوه، من أثر رحيل المصطفى ﷺ، ومن وضع هؤلاء الذين صاروا لا مأوى لهم ولا ناصر... ذلك أن" أي أسلوب إنشائي يفيد مجموعة من المعاني المتقاربة المتداخلة، يثيرها الأسلوب في النفس المتلقية، وهى شعورية أو نفسية أو عقلية، ولهذا فقد نجد اختلافا في تسمية هذا المعنى أو تعيينه؛ لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة". (١)

وذِكر السيدة صفية ﷺ للشمطاء في قولها: "لِتَبْكِيكَ شَمْطاءُ" وهي التي شاب شعرها وابيض؛ يدل على مكانة ومنزلة المصطفى ﷺ، فالشمطاء التي كبرت وطعنت في السن حتى باتت لا تهتم بالأشياء من حولها، ولا تدرك الكثير من الأحداث، ولا تتأثر بالمجريات، ولا تنفعل وتتفاعل مع المتغيرات حولها مثلما تفعل الفتاة الشابة؛ ترى هذه الشمطاء تبكي على فقْد المصطفى ﷺ؛ وهذا يدل على أن الحزن والتحسر والألم... على فقده ورحيله ﷺ سيكون من الجميع، حتى من طعنوا في السن ولا

(١) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، ا. د. صباح دراز، صـ ١٧، طبعة/ مطبعة الأمانة، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٨٦ م.

يهتمون، أو لا يشعرون بما يحدث ويقع من حولهم؛ سيبكون ويحزنون على فقد المصطفى ﷺ .

هذا: ومن المحتمل أن يكون ذِكر الشمطاء هنا؛ لبيان مزيد من كرم المصطفى ﷺ على المحتاجين، ورعايته لهم، وعطفه عليهم، وتفقده لأحوالهم، حتى صار هو الآوي والناصر والمعين للعجائز الطاعنين في السن المضرورين المحتاجين... ، وهذا ما تؤكده الصفة التي جاءت عقب المسند إليه في قولها: "شَمْطاءُ مَضْرُورةٌ" فهذه الشمطاء ليست طاعنة في السن وحسب، وإنما هي مضرورة مفتقرة بحاجة إلى من يتعهدها ويرعاها ويعينها ويساعدها...، وهذا يشير إلى كرم المصطفى ﷺ على المحتاجين المتضررين العاجزين الطاعنين في السن.

بينما السيدة عاتكة ﷺ نوّعت في التعبير من خلال استفهام آخر وحالة أخرى، فقالت بعد ذِكر المغلل: "أمْ مَنْ لِكلّ مُدَفّعٍ ذِي حاجَةٍ ؟" فتستبعد هنا وجود المُعين والمساعد والناصر... لكل صاحب حاجة، أو لكل من هو مسلسل في الحديد ويشكو قيده. والاستفهام يكشف كرم المصطفى ﷺ على هؤلاء، ويُظهر شدة حاجة هؤلاء إليه، وأن رحيله كان فاجعة نزلت بهم، فلا ملاذ لهم بعده ﷺ. وقد بلغت السيدة عاتكة ﷺ الذروة في الإبداع في قولها: "مُدَفّعٍ" حيث لم تقل: "أم من لكل ذي حاجة" وهذا من جميل الاعتراض؛ لبيان أن هذا المحتاج مدفوع ومطرود... من كل من يقصده ويتوجه إليه، فلا أحد يتقبله، ولا سبيل ينشده، فهو في شدة ما بعدها شدة، فصار مطرودا من الجميع، فقد كان المصطفى ﷺ ملاذه وملجأه، لكن من له بعد رحيل المصطفى ﷺ ؟! لا أحد يعينه أو يقف معه ويساعده. والتشديد في كلمة: "مُدَفّعٍ" يفيد المبالغة في الرفض والدفع الذي ناله صاحب الحاجة، وأن الجميع أغلق أمامه الأبواب وأحكمها، وأوصد السبل التي تنقذه وتعينه.

أما في القصيدة الرابعة للسيدة صفية ﷺ فقد نوّعت في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ ؛ من خلال الكناية في قولها:

كَـــــــرِيمِ الْخِـــــــيمِ أَرْوَعِ طَوِيـلِ الْبَـاعِ مُنْتَجَـبٍ نَجِيـبِ!

تمثل تلك البداية لوحة تعبيرية لشاعرة حزينة مكلومة تُظهر من خلالها مكانة المرثي وكرمه على الناس كافة وعلى المحتاجين بصفة خاصة، فآثرت الكناية هنا لبيان ما تميز به المصطفى ﷺ من سجايا، وما تحلى به من صفات، ونقاء سريرة، وجود وكرم. وقولها:"كَرِيمِ الْخِيمِ أَرْوَعِ مَضْرَحِيٍّ" كناية عن حسن خلقته، وكريم شمائله، وجماله وبهائه. وقولها: "طَوِيلِ الْبَاعِ" كناية عن رفعة منزلته وعلو قدره ومكانته ونباهة عقله. والعنصر الجمالي الذي تعانق مع الكناية هنا؛ هو بناء الصفات على الفصل دون الوصل؛ مما يدل على كمال المصطفى ﷺ في هذه الصفات دفعة واحدة، فلم تنفرد صفة بذاتها وإنما تكاملن جميعا فيه حتى بلغ حدا عاليا في كرم الخلق، وجميل الطباع، وكذا حُسن الخليقة، وجمال الشكل، وبياض النفس، ونقاء القلب، وكل هذا من طبعه وسريرته.

وقد توّجت السيدة صفية ﷺ موضعها بالجناس في "مُنْتَجَبٍ نَجِيبِ" فالمُنتجب أي المجتبى والمصطفى والمستخلص، والنجيب من النّجب أي السخاء والكرم، وهذا يدل على أن المصطفى ﷺ كمُل في كل شيء، فهو المجتبى المصطفى المخصوص بالرسالة من قبل الله ﷻ. وهو الكامل المُكمل في الكرم والسخاء والجود والبذل والعطاء...، وقد أحدث الجناس تناسبا لفظيا تطرب له الأذن من خلال التوقيع الصوتي والتناغم الموسيقي المحبب إلى القلب من حسن التجاور الذي حدث بين الكلمتين، فضلا عما له من "التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلا كاملا أو ناقصا تطرب له الأذن، وتهتز له أوتار القلوب، والمجنس يقصد اختلاف الأذهان، وخداع الأفكار..." . [1] وقد جاء الجناس هنا في غاية الروعة والدقة والبعد

(١) البلاغة والتحليل الأدبي، د. أحمد أبو حاقة، صـ ١٩٧، طبعة/ دار العلم للملايين، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٨٨م.

عن الكلفة، وقد حقق عظيم الفائدة، وأظهر كمال المصطفى ﷺ . كما أن التجاور والتوالي بين المتجانسين حقق التلاحم والترادف والتماسك والقوة... في الصفات، فضلا عن التناغم والتوافق الصوتي، كما أن التعبير بصيغة المبالغة "فعيل" دل على عِظم عطاء وكرم وجود وسخاء... المصطفى ﷺ وبهذا" أحدث الجناس تقابلا نغميا يحرك الذهن، ويجسد الصورة، ويثير الخيال، ويساعد على التناغم". [1] ثم قالت:

ثمَالِ الْمُعْدَمِين وَكُلّ جَارٍ وَمَأْوَى كُلّ مُضْطَهَدٍ غَرِيبِ

فتتجلى هنا رهافة الحس اللغوي للسيدة صفية ﷺ حينما اتجهت إلى التعريف بالإضافة؛ للاستغناء عن تفصيل يتعذر، وهذا يبين كرمه، ويبرهن عن جوده، ويبرز إعانته، ويجلّي عن إغاثته... ﷺ للجميع، فلم ترد أن تخص أحدا دون أحد، وإنما آثرت الإضافة لتعم كل مُعدم ومحتاج. كما جاء التعريف والجمع في لفظ: "الْمُعْدَمِين" متآزرا ومتعانقا مع ما أوحته الإضافة، فهو يعم كل محتاج، وكل سائل، وكل ذي طلب، وكل صاحب إعانة. كما أن لفظ: "ثمَالِ" وهو المغيث، يزيد المعنى تأكيدا ووضوحا ببساطته ورحابته؛ فهو يشير إلى أن المصطفى ﷺ جمع كل صفات الكرم والعطاء والدفاع والحماية... لكل المعدمين، فهو مغيث للمحتاج والسائل والمعدم من قِلة المال، وهو مغيث للضعيف الذليل المعدم من الضعف والمذلة، وهو مغيث للفقير والمسكين، وهو مغيث للجميع. وهذا أكمل في إظهار كرمه ﷺ على الجميع، وأنسب في بيان جوده، ويعد حسنا من الشاعرة في التعبير واختيار كل لفظ في موقعه حتى يصنع تأثيرا خاصا مع ما يجاوره. ذلك أن "أحسَنُ الشَّعْر مَا يُوضَعُ فِيهِ كلَّ كَلِمَةٍ

(١) البلاغة ذوق ومنهج" فن الصورة" ، د. عبد الحميد العبيسي، القسم الأول ٤١١، طبعة/ مطبعة حسان، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٨٤. ١٩٨٥م.

مَوْضِعَهَا حَتَّى تُطابِقَ المَعْنَىَ الَّذِي أرِيدَتْ لَهُ، ويكونُ شَاهِدُهَا مَعَهَا لَا يحتاجُ إِلَى تَفْسِير من غَيرِ ذاتِها" . (١)

ثم جاء الشطر الثاني؛ ليؤكد ما جاء في الشطر الأول، فقالت: "وَمَأْوَى كُلِّ مُضْطَهَدٍ غَرِيبٍ" وهو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن كل مضطهد غريب؛ داخل في قولها في الأول: "الْمُعْدَمِين" فهو معدم لكونه لا حول له ولا قوة؛ فصار مضطهدا غريبا في بلده وأرضه من ضعفه وخوره، فالمصطفى ﷺ مأواه وملاذه ومغيثه. وهذا يزيد من كرمه وغوثه ﷺ . وعطف الخاص على العام؛ لمزيد اهتمام بهذا المُضطهد الغريب، فهو لا مأوى له، ولا مكان له، والسبل كلها أغلقت أمامه، فهو معدم من عدة جوانب، فهو فقد قوته وأصبح ضعيفا، ثم سُلبت أرضه فصار مضطهدا، ثم انتقل إلى بلاد أخرى وأصبح غريبا؛ وهذا كله يظهر كرم المصطفى ﷺ ، ويُعلي من جوده، ويقوي من سخائه، ويرفع من غوثه وعطائه على الجميع، وخاصة على هذا المضطهد الذي لا مأوى له ولا ملاذ. ذلك أن النكتة البلاغية التي تستشف من وراء ذِكر الخاص بعد العام: "هي التنبيه على فضل الخاص حتى كأنه ليس من جنس العام، تنزيلا للتغاير في الوصف منزلة التغاير في الذات، فكان هذا الخاص لرفعته وفضله قد تميز عما قبله وأصبح مغايرا له، ويكون ذلك بغرض إظهار الاهتمام بالخاص والتنويه بشأنه" . (٢)

بينما السيدة عاتكة ﷺ قد تفوقت على السيدة صفية ﷺ في التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ؛ من خلال الاستعارة والإيغال التي آثرتهما في القصيدة الثالثة، فقالت:

---

(١) عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، تحقيق: د. عبد العزيز بن ناصر المانع، صـ ٢١٥، طبعة/ دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية ١٩٨٥م.

(٢) الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ٢/ ١٣٥، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى ٢٠٠٢ م.

فَجُودَا بِسَجْلٍ وَانْدُبَا كُلَّ شَارِقٍ رَبِيعَ الْيَتَامَى فِي السِّنِين الْبَوَازِمِ!

فبدأت أولا بالأمر لِحث العين على البكاء بكثْرة وغزارة كل صباح. ثم زادت الكلام قوة وحسنا فكررت الأمر في "وَانْدُبَا" لحث العين على الإفاضة بكل الدموع التي بداخلها، وللحرص على البكاء؛ لأن المصاب عظيم، والخطب فادح، والوقت وقت توجع وألم وندب وحسرة... من الجميع؛ لأجل ربيع اليتامى وكافلهم ومعاونهم ومساعدهم وداعمهم... ثم زادت الأمر وضوحا وتأكيدا؛ بجملة "كل شارق" أي كل يوم تطلع فيه الشمس، فهي لم تقل: "واندبا ربيع اليتامى" وإنما اعترضت بهذه الجملة اللطيفة التي لا منتهى لحسنها؛ لبيان استمرارية البكاء، وبقاء الحزن، ودوام الفجع والندب والوجع. فبكاء المصطفى ﷺ ليس كبكاء غيره من الراحلين الذي يشتد حال المصيبة ثم سرعان ما يزول البكاء، وتهدأ النفس؛ إنما بكاء المصطفى ﷺ باق، والأنين مستمر، والوجع موصول كل يوم تطلع فيه الشمس، فكيف للنفس أن تنسى، وكيف للقلب أن يهدأ ويغفل عن ربيع اليتامى.

ثم زادت الكلام بيانا وتأكيدا وسمت بمعناها وارتقت؛ حين قفّت عليه بالاستعارة والكناية في: "رَبِيعَ الْيَتَامَى فِي السِّنِين الْبَوَازِمِ" فاستعارت الربيع وما يأتي به من هواء رطب، ونسيم عذب، ورياح نقية تنبت الزرع، وتبهج الناس، وبه يخرج الناس من برد الشتاء إلى الدفء والراحة والسكون والاستقرار... ؛ استعارت كل هذا لما يفعله المصطفى ﷺ مع اليتامى، فهو كالربيع الذي يبهجهم ويسعدهم ويسرهم... وينقل الدفء لهم؛ من جميل عطاياه، وحسن كرمه، وزيادة فضله، وكمال سخائه. والاستعارة تُظهر بِشر اليتامى بالمصطفى ﷺ، وأنه لهم بمثابة الربيع الذي يُسعد الكون، ويستفيد من نسماته الإنسان والنبات والحيوان، فكما ينتظر الناس الربيع في شوق وتشوق؛ كذاك حال اليتامى، فالمصطفى ﷺ ينقذهم من شدائدهم ويعينهم ويساعدهم. وهذا كله كشفته الاستعارة، ذلك أنها: "تعطيك الكثير من المعاني باليسير

من اللفظ حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِي من الغُصْن الواحد أنواعاً من الثَّمر" . (١)

وقول السيدة عاتكة ﷺ "فِي السِّنِين الْبَوَازِمِ" كناية وإيغال جاءا ليؤكدا مدلول الاستعارة، ويقويا من إيحاءاتها، وهما يدلان على المبالغة في الكرم والجود والعطاء...على المحتاجين، ويبعثان معا في الصورة صبغة حسية تقربها من الأذهان، ففي شدة الجدب، وحلول القحط، وحدوث الشدائد، ونزول الجوع؛ يكون كل إنسان أشد تمسكا بما يملك، وأكثر حفاظا على ما يحوز؛ لكن المصطفى ﷺ يجود ويرعى ويهتم بهؤلاء اليتامى، ويعطف عليهم، ويسد جوعهم، وهو لهم كالربيع الذي يُحيي الكائنات، ويبعث فيها نسيمه وهواءه وعذوبته، فالمصطفى ﷺ كفيل هؤلاء في السنوات الشديدة المجدبة المقحطة... التي يهتم فيها كل شخص بنفسه من شدة القحط، وهذا من أعلى درجات الكرم.

والإيغال والكناية عملا على المبالغة في المعنى، واستدعاء الانفعال مع أحداث تلك السنين، وبيان هولها وشدتها وقوتها في الجدب والقحط. ذلك أنه: "مما تحسن به المبادئ أن يصدر الكلام بما يكون فيه تنبيه وإيقاظ لنفس السامع أو أن يشرب ما يؤثر فيها انفعالا ويثير لها حالا من تعجيب أو تهويل أو تشويق أو غير ذلك..." . (٢) كما جاء التعبير باسم الفاعل في "الْبَوَازِمِ"؛ ليدعم الإيغال والكناية ويقررهما، ويتآزر مع دلالة ثبوت ودوام وعموم حالة الجدب والقحط في ذلك الوقت. ذلك أن التعبير باسم الفاعل "اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، صـ ٤٣، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩١ م .

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، صـ ٣١٠، طبعة/ دار الغرب الإسلامي، بيروت.

الفاعل ورسوخه فيه، والفعل الماضي لا يدل عليه، كما يقال: فلان شرب الخمر، وفلان شارب الخمر، وفلان نفذ أمره، وفلان نافذ الأمر، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ، ومن اسم الفاعل يفهم ذلك" . (١)

ولا يخفى على البحث تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ عند السيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية من خلال التنوع في صيغ الأمر، وتعديد الحالات التي ستبكي على رحيله ﷺ ، فقالت:

لِيَبْكِيكَ شَيْخٌ أبُو وِلْدَةٍ يطُوفُ بِعِقْوَتِهِ أشْهَبُ

انتقلت السيدة صفية ﷺ إلى صنف جديد تبين بكاءه، فنوّعت في الأصناف التي ستبكي؛ فاختارت الشيخ، ووصفت المسند إليه بعدة صفات، فهو صاحب أولاد، ويطوف حول داره، وشعرُه أبيض، وكل هذه الأوصاف للمسند إليه؛ كناية عن شدة حالة هذا الشيخ، وعلى ضعفه وكبره وخوره...، وعلى ما هو فيه من قُل وحاجة وحرمان...؛ حتى بات يطوف حول بيته لعله يجد من يقدم إليه شيئا، أو يجد شيئا يدفع عنه حاجته وحاجة أولاده، فهو في لهفة نحو من ينقذه ويدفع عنه ما هو فيه. وهذا كله يُظهر كرم المصطفى ﷺ على هؤلاء، وأنه كان المنقذ والمساعد لهم، وأن هؤلاء يبكون بكاء مريرا ومستمرا على المصطفى ﷺ . وقولها: "يطُوفُ" التعبير بالمضارع يُظهر تجدد الطواف والسعي والدوران والتلفت حول البيت من قِبل هذا الشيخ، فهو في لهفة وحيرة وفاقة، ويجدد طوافه ويستمر فيه ويشتاق إلى أي أمل يجده يدفع به حاجته. كما أن المضارع يستحضر مشهد هذا الشيخ وهو يطوف حول بيته، ويجعل المتلقي يدرك ما بلغه هذا الشيخ من شدة وحاجة بعد رحيل المصطفى ﷺ .

---

(١) مفاتيح الغيب للرازي٢٥/ ٢٧.

بينما السيدة عاتكة ﷺ اتجهت في تعبيرها في القصيدة الأولى إلى ذِكر حالة أخرى هي أشد احتياجا للمصطفي ﷺ ، فقالت:

أَمْ مَنْ لِكلّ مُدَفّعٍ ذِي حاجَةٍ ومُسَلْسَلٍ يشْكُو الحدِيدَ مُقَيّدِ

اعتمدت السيدة عاتكة ﷺ على الاستفهام مرة أخرى؛ لتفيد استبعاد وجود من يقوم على هؤلاء من رعاية وغوث، وهذا يُعلي من كرم المصطفى ﷺ ويعظم من صفاته، وقولها: "ومُسَلْسَلٍ يشْكُو الحدِيدَ مُقَيّدِ" تعداد لحالات المحتاجين، والمسلسل في الحديد هنا أشد حاجة لمن يغيثه من الصنفين المذكورين قبله في قولها: "مَنْ ذَا يَفُكُّ عَنِ الْمُغَلَّلِ غُلَّهُ، أَمْ مَنْ لِكلّ مُدَفّعٍ ذِي حاجَةٍ". وهذا يدل على شدة احتياج هذا المسلسل بالأغلال؛ لمن يفك عنه السلاسل والقيود التي هو فيها، كما أن قولها: "يشْكُو" بالتعبير بالمضارع؛ يدل على تجدد الشكوى منه، ومن ثم رغبته الملحة في انتظار من ينقذه. كما أن المضارع يستحضر مشهد هذا المقيد في الأغلال؛ ليشير إلى أنه كان مرئيا ومشاهدا من الجميع؛ لكن لا أحد له، ولا عون له، ولا ناصر له، ولا دافع له.

ثم زادت كلامها تأكيدا وبيانا؛ بقولها: "مقيد" لبيان أسر المقيد وضعفه ومذلته... ، وهو داخل في قولها: "مسلسل" لكن الإيغال زاد في المعنى، وأكد ما فيه هذا المقيد من الضعف والخور، وبالغ في ما وصل إليه من مذلة ومهانة؛ حتى صار لا حول له ولا قوة، يشكو القيد والسلاسل والأغلال ... وليس أفظع وأقوى من هذه الحالة التي وصل إليها هذا المسلسل، ولا أغرب إلا ألفاظ السيدة عاتكة ﷺ التي تحدثت بها، ولذا فإن أسلوبها يعد من ائتلاف اللفظ مع المعنى المراد، فجمعت بين: "المُغَلّل، وذِي الحاجة، والمُسَلْسَل" وهذا قسم من أقسام مراعاة النظير، وهو من أبواب البلاغة العالية التي تروعك بنظمها، وتأخذ لُبك بجزل لفظها وتلاؤمه مع معناها، وانتظامها في عقد فريد.

والسيدة صفية ﷺ في القصيدة الثانية تفوقت على السيدة عاتكة ﷺ من خلال الزيادة والتفصيل في شأن الأصناف التي ذكرتهم، وأبانت أن المصطفى ﷺ غمرهم بجوده وكرمه وعطفه...؛ ومن ثم حق لهم أن يبكوا عليه ﷺ ، فقالت:

ويبَكْيِكَ ركْبٌ إذا أرْمَلُوا فلَمْ يُلْفَ ما طَلَبَ الطُّلّبُ

فنوّعت هنا وأتت بصيغة الخبر المباشر في قولها: "ويبَكْيِكَ ركْبٌ" وهذا يشير إلى حصول البكاء وتحققه وحدوثه من هؤلاء الركب، وكأن هؤلاء الركب حينما علموا بخبر فقْد المصطفى ﷺ أسرعوا وبادروا بالبكاء والحزن. والمضارع يستحضر مشهد البكاء، ويجعله مستمرا ومتواصلا من دون انقطاع؛ مما يدل على شدة الحزن، وقوة الألم الذي سيطر وخيّم على هؤلاء جميعا. وقولها في البيت الثاني: "ويبَكْيِكَ ركْبٌ إذا أرْمَلُوا" ذكرت صنفا جديدا سيبكي على المصطفى ﷺ ؛ وهو الركب، والتنكير في لفظ "ركْبٌ" يدل على أنه ركب من نوع خاص بلغ مبلغا عظيما في الحاجة والشدة والافتقار... وهذا ما برز من خلال وصف المسند إليه في" أرْمَلُوا" أي هلكت أموالهم، وفقدوا زادهم، وهم أشد حاجة من الصنفين السابقين، فهؤلاء الركب نزل بهم ضنك شديد، فقد هلك المال الذي يُلبي لهم حاجات السفر، وفقدوا الزاد الذي يعينهم على استمرار السير والمسير، فهم في شدة ما بعدها شدة، وفي ضيق وكرب ما بعده ضيق وكرب، فالمصطفى ﷺ كان يكفل كل هؤلاء، وكان هو المعين، وكان الملجأ والملاذ الذي يفرون إليه ويقصدونه، فمن سيكون لهؤلاء بعد رحيله ﷺ !؟ .

ثم أجادت السيدة صفية ﷺ وقوّت معناها بقولها: "إذا أرْمَلُوا" وهو وصف زاد في المعنى وضوحا وبيانا وتقريرا، والتعبير بـ "إذا" يتناغم معه ويدل على تحقق الفقد للزاد، والهلاك للمال، ونفاذ كل شيء، ومن ثم فهؤلاء الركب انقطع بهم الأمل، وحلّ بهم الهلاك والموت. وقولها: "فلَمْ يُلْفَ ما طَلَبَ الطُّلّبُ" وصف آخر لهؤلاء الركب، والجملة غاية في الإيجاز، أي لم يزل عنهم ما هم فيه من حاجة، وهلاك مال، وفقْد

زاد رغم أنهم طلبوا من يعينهم، وسعوا في البحث عن من يعينهم، وجهدوا في طلب من يكون منقذا لهم.

والسيدة صفية ﵂ في القصيدة الخامسة اتجهت إلى حشد العديد من صفات المصطفى ﷺ لتبرز كرمه، وتظهر فضله، وأنه صار مقصدا وموردا لكل قاصد ومحتاج، فقالت:

أَبْلَجٌ صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ، صَادِقُ الْوَعْدِ مُنْتَهَى الرُّوَّادِ!

عَاشَ مَا عَاشَ فِي الْبَرِيَّةِ بَرًّا، وَلَقَدْ كَانَ نُهْبَةَ

بدأت السيدة صفية ﵂ كلامها بطي المسند إليه للعلم به من الأبيات السابقة، ولكمال اتصاف المصطفى ﷺ بكل الصفات التي تسوقها، وجاء الفصل بين الصفات؛ للإشارة إلى بلوغه درجة الكمال في هذه الصفات، وأنها تجمّعت واكتملت فيه والتصقت دفعة واحدة. ثم دعمت كلامها بالكناية في: "صَادِقُ السَّجِيَّةِ عَفٌّ" كناية عن تحلّيه ﷺ بجميل السجايا، وحسن الخصال، وكريم الخِلقة، وطيب الأصل، وعفة النفس في كل شيء، وأن كل ما فيه ﷺ فهو من أصله ومنبته وطبيعته... .

ثم لم تقف عند الكناية وإنما أتبعتها بلوحة تعبيرية تظللها كي تزداد المعاني حسنا، فأتت بالاستعارة التي أقامتها وبلورتها في "نُهْبَةَ الْمُرْتَادِ" فالمرتاد لا يأتي للمصطفي ﷺ في خجل ووجل وحرج وضيق نفس، وإنما كان المصطفى ﷺ غنيمة لكل محتاج؛ من كثرة جوده وعطائه وكرمه... على كل مرتاد وقاصد. فإذا كانت الغنيمة يتشارك فيها الجميع، ويكون لكل من حضر الحق في الأخذ منها، والغُنم بها؛ فكذا ما عند المصطفى ﷺ يجد فيه كل مرتاد؛ الغُنم والحق فيأخذ دون خجل ووجل. والاستعارة تبرز حسن ارتياد هؤلاء، وتظهر إلْفهم للعطايا، وكثْرة تواردهم، وأنهم تجاوزوا مرحلة الخجل والوجل التي تلازم المحتاج؛ إلى مرحلة مغايرة، فصاروا يألفون الورود والذهاب لنيل العطاء، وصار كالغنيمة التي يتملكونها ويصير لهم حق واجب

فيها. وهذه المعاني الغزيرة برزت من خلال الاستعارة التي "تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد أنواعا من الثَّمر" . (١) والجمع في الرواد؛ يدل على كثرة المرتادين، وكثرة القوم، وأن عطايا المصطفى ﷺ وسخاءه وفضله وجوده... من كثْرته؛ صار الناس يخبر بعضهم بعضا، ويبلغ بعضهم بعضا، ويدعو بعضهم بعضا دون حرج أو وجل. والرواد: جمع رائد، وهو الذي يتقدم القوم يُبصر لهم الكلأ ومساقط الغيث، ومن ثم فهم رُواد كُثر، وكل رائد خلفه ما خلفه من القوم والعشيرة .

إننا أمام حديث رثائي تستدعي فيه السيدة صفية ﷺ صفات المصطفى ﷺ كي تبرز كرمه على المحتاجين، وتبين أن أمر رحيله جلل، ووقع فراقه صعب، فلم يكن فقْده مجرد فقْد، وإنما رحل من كان غنيمة لكل مرتاد، وللناس كافة، ما عاد للقوم غُنم يغنمون منه، ولا غيث يغيثهم عند الجدب، ولا عون يعينهم عند الكرب. ولا شك أن هذا الحدث الجلل والخطب العظيم يثير الاضطراب والمفاجأة والاهتزاز والتفكر، ومن هنا اتجهت السيدة صفية ﷺ إلى التكرار في "عَاشَ مَا عَاشَ" والتكرار يُلقي بظلاله هنا على المعنى، ويُحدث تناغما في الآذان يجعلها تطرب، وتتيقظ لما يتكرر صداه داخلها. ثم جاءت جملة الصلة لتستحضر معها الأيام التي عاشها المصطفى ﷺ مع صحابته، وكيف كانت تلك الأيام لها خصوصيتها وميزتها وعظمتها ومكانتها ومنزلتها في نفوس الجميع، فقد كان برا بكل الخلق؛ لذا فإن السيدة صفية ﷺ تبرز حزنها على فوات كل تلك الصفات الحسنة، والأيام الجميلة، والأوقات التي قضاها المصطفى ﷺ وكانت عامرة بالخير والبر والفضل والكرم والجود والرحمة واليسر... على الناس كافة.

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، صـ ٤٣.

وهكذا استطاعت السيدة صفية ﷺ أن تسلط الضوء على صفات المصطفى ﷺ لتكشف عن ... عن كرمه وجوده ويسره وبره على الخلق أجمعين، وقد ارتكزت على التقديم في"عَاشَ مَا عَاشَ فِي الْبَرِيَّةِ بَرًّا" والتقدير"عاش برا في البرية ما عاش" أي القدْر والعمر الذي عاشه، فقدّمت هنا جملة الصلة والجار والمجرور؛ للاهتمام بجملة الصلة وإظهار الحزن والأسى على فراق ورحيل المصطفى ﷺ الذي كان بهجة الأيام، ونسيم الزمان، وبلسما في الشدائد. كما أن التقديم يكشف عن احتدام الفراق في نفس الشاعرة على خير البرية الذي عمّ فضله على البشرية، وأغرق خيره كل البرية، وغمر جوده البلاد والعباد، فهي لن تبكي وحدها وإنما البرية كلها ستبكي حزنا وأسفا وأسى وندما... على رحيل من عاش برا بهم، ونافعا لهم، وخيّرا عليهم، وجوادا إليهم، وكريما فيهم، وهذا ما أبرزه التقديم، فهو" يجري على نسق دقيق من مراقبة المعاني، ومتابعة الأحوال، وهو متشعب النواحي، متعدد الأصول، فهم يقدمون من المتعلقات ما هو أوثق بغرض الكلام وسياقه" . [١]

(١) خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ. د. محمد أبو موسى، صـ ٣٦٧، طبعة/ مكتبة وهبة، طبعة/ تاسعة ٢٠١٤ م.

المبحث الرابع

تنوع التعبير عن أثر فقْد المصطفى ﷺ على نفس الشاعرتين في الدعاء للمصطفى ﷺ

الدعاء صفة يتصف بها المخلصون في حبهم، الصادقون في مشاعرهم، الأنقياء في ودهم، الطاهرون في وصالهم؛ فتراهم يخصون من فقدوا بالدعاء، ويخلصون في تذكرهم وودّهم وحبهم... ؛ بكريم الأقوال، وطلب المغفرة، وحسن الثواب والمآل، والمصطفى ﷺ نال من الحب والإعزاز والفداء... قدْرا كبيرا في نفوس أمته على وجه العموم، وفي نفوس صحابته ﷺ على وجه الخصوص، فأحبوه أكثر من أنفسهم، ويُفدوه جميعا بأرواحهم. وقد أبرزت شاعرتا البحث هذا الحب والإعزاز والإخلاص والتذكر... في كثْرة الدعاء للمصطفي ﷺ ، فقالت السيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى:

رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ ... وَجَزَاهُ الْمَلِيكُ حُسْنَ الثَّوَابِ!

وقالت في السادسة:

فَلَقَدْ كَانَ بِالْعِبَادِ رَءوفًا، ... وَلَهُمْ رَحْمَةً وَخَيْرَ رَشِيدِ

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا، ... وَجَزَاهُ الْجِنانَ يَوْمَ الْخُلُودِ!

بينما قالت السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الأولى:

فعَلَيْكَ رحمَةُ ربّنَا وسَلَامُهُ ... يا ذَا الفَوَاضِلِ والنّدَى والسّودَدِ!

هلّا فَداكَ المَوْتَ كُلّ مُلعّنٍ ... شَكْسٍ خلَائقُهُ لئيمُ المَحْتِدِ؟

---

(١) المُلعن: المُعذب. لسان العرب ١٣/ ٣٨٨. شكس: السيء الخلق. المخصص ١/ ٢٤٦. المحتد: الأصل. تهذيب اللغة ٤/ ٢٣٤.

وقالت في الثانية:

فَاذْهَبْ حَمِيدًا! جَزَاكَ اللَّـهُ مَغْفِرَةً، يَوْمَ الْقِيَامَـةِ، عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ

في هذه الأبيات يتجلى الحب، وتتجلى كل أنواع المودة ومظاهر الوصال والتذكر؛ بجميل الدعاء، وحسن الثناء، فالسيدة صفية ﷺ ختمت قصيدتها الأولى بهذا الدعاء الجميل عقب قولها:

مُشْفِقٍ نَاصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْنَا. يَوْمَ الْقِيَامَـةِ، عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ

بعد أن أظهرت حرص المصطفى ﷺ على الخلق أجمعين، وزيّنت كلامها بالجناس في"مُشْفِقٍ شَفِيقٍ" فالمشفق: الناصح الخائف على المنصوح أن يناله مكروه، والشفيق: الناصح الحريص على صلاح المنصوح، وهذا يشير إلى حرص المصطفى ﷺ على الخلق أجمعين، وخوفه عليهم، ونصحه لهم، وتمسكه بهم حتى لا ينالهم مكروه، وتشبثه بهم رغبة في صلاحهم ونفعهم. ثم لم تكتف بجمال الجناس الذي عمّقت به نُصح المصطفى ﷺ للخلق، وأكدت به خوفه عليهم؛ بل أوغلت في تعبيرها بقولها: "رَحْمَةٍ مِنْ إِلَهِنَا الْوَهَّابِ" وقد دلّ عليه ما قبله، فإذا كان ﷺ ناصحا شفيقا مشفقا على الخلق؛ فما ذاك إلا دليل على أنه رحمة من رب الناس أجمعين، ولكن السيدة صفية آثرت الإيغال والتأكيد على أن المصطفى ﷺ جاء رحمة للخلق من قِبل رب العباد. ثم ختمت بحسن الثناء، وطيب الرجاء، وكريم الدعاء، فقالت: "رَحْمَةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ" والكلام يحتمل أن يكون على طي المسند إليه، أي: "هو رحمة الله" للإشارة إلى ظهور المصطفى ﷺ وبروزه وأنه معلوم ومعروف بأنه رحمة الله ﷻ التي أهداها للخلق، وأرسلها إليهم. ويحتمل ـ وهو الأقوى ـ أن الجملة خبرية لفظا إنشائية معنى، والمراد بها الدعاء للمصطفى ﷺ وجاءت بلفظ الخبر تفاؤلا بتحقق الرحمة للمصطفى ﷺ، وإبرازا لحرص السيدة صفية ﷺ على حصولها وتحقيقها حتى كأنها حصلت وهي تخبر عنها إخبارا، يقينا منها بأن الله ﷻ عنده

حسن الجزاء والثواب للمصطفى ﷺ .

ثم استمرت السيدة صفية ﷺ في دعائها، فجاء الوصل لما بين الجمل من اتفاق في الخبرية لفظا فقط؛ ليكشف عن دواخل السيدة صفية ﷺ ومدى حرصها على الدعاء للمصطفى ﷺ، وأنها ترجو له الرحمة والسلام من قِبل رب العباد. ويلحظ البحث الثنائية العجيبة التي عقدتها الشاعرة حينما عبرت عن معانيها بالتنكير مرة والتعريف مرة، فاختارت التنكير في جانب الرحمة؛ للإشارة إلى أنها ترجو رحمة عظيمة وواسعة للمصطفى ﷺ. ثم تتجلى شاعريتها وتخيرها لألفاظها؛ فلجأت إلى التعريف في جانب السلام؛ لتفيد أنه سلام مخصوص من نوع فريد تدعو أن يناله ويفوز به المصطفى ﷺ من رب الناس أجمعين. كما أن التعريف يدل على كمال السلام، ومنتهى الأمان، وغاية الاطمئنان الذي سيتوج به المصطفى ﷺ ، وهذا من حسن ترتيب وصياغة السيدة صفية ﷺ لمعانيها.

بينما السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الأولى بعد أن أظهرت تساؤلها عن وحي الله ﷻ الذي رُفع بارتفاع المصطفى ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فقالت:

أَمْ منْ لِوحْيِ اللهِ يُتْرُكُ بيْنَنَا فِي كلّ مُمْسي ليْلَةً أو فِي غدِ؟

والاستفهام يكشف عن تعجبها وحيرتها، وينقل زفرات الحزن التي تخيم عليها بسبب رحيل المصطفى ﷺ ورحيل الوحي معه، وانقطاعه بعده، وحرمان العباد من هذا الفيض العظيم. ثم زيّنت كلامها بالطباق المعنوي في قولها: "فِي كلّ مُمْسِي ليْلَةً أو فِي غَدِ" وهذا يدل على ما خيم عليها من حزن، وما بلغته من حسرة، وما تملّكها من ندم على رحيل خير البرية ﷺ ، وعلى الوحي الذي انقطع وحُرم الناس من نفعه وفضله وخيره... وما يحمله لهم من خيرات في المساء وفي الغد. وتنكير "غد" لإفادة العموم، أي عموم الغد القادم، والمستقبل الذي ينتظره كل الخلق حتى قيام الساعة؛ لأنه لا وحي بعد رحيل المصطفى ﷺ .

ثم ما لبثت إلا أن تسلّت بالصبر والتصبر؛ فتوّجت قصيدتها وظللتها بظل وارف وختمتها بجميل الدعاء، وطيب الثناء، وخير الرجاء للمصطفي ﷺ، فقالت: "فَعَلَيْكَ رحمَةُ ربّنَا وسَلَامُهُ" فقدمت وأخرت هنا في الجمل، والتقدير: "رحمة ربنا وسلامه عليك" وذلك للاهتمام والتأكيد على الرحمة التي تطلُبها للمصطفي ﷺ، وتدعو أن ينالها، وترجو أن توجبها له ﷺ . كما أن التقديم يُبرز حبها للمصطفى ﷺ، ورغبتها في تقديمه وذكره والإشادة به ﷺ. كما أن التقديم يفيد التخصيص، فكأنها في هذه اللحظة أنستها تلك الفادحة كل الناس، وخطْب رحيل المصطفى ﷺ أفقدها كل مفقود، وأنساها كل عزيز على نفسها؛ ومن ثم لم تتذكر أحدا، وقصرت الرحمة والسلام والثناء والدعاء على المصطفى ﷺ . ولما قدمت قولها: "عليك" على ما بعده، وخصت وقصرت دعاءها للمصطفى ﷺ؛ لم تأت بلفظ "السلام" معرفا كما فعلت السيدة صفية ﷺ، والتنكير في "سلامه" يدل على أن السيدة عاتكة ﷺ تدعو بأن يشمل المصطفى ﷺ سلام عظيم الشأن، وعالي القدر، ويعمه في كل أحواله. والنداء في "يا ذَا الفَوَاضِلِ والنّدَى والسّودَدِ" يؤكد رغبة السيدة عاتكة ﷺ في إعلاء قدْره ﷺ وتوقيره، وندائه بصفات جليلة عظيمة كي تفيد أنه عُرف بها واشتهر.

والسيدة صفية ﷺ في قصيدتها السادسة بعد أن أظهرت رحمة المصطفى ﷺ ، فقالت:

فَلَقَدْ كَانَ بِالْعِبَادِ رَؤُوفًا، وَلَهُمْ رَحْمَةً وَخَيْرَ رَشِيدِ

تزهو هنا السيدة صفية ﷺ بالمصطفى ﷺ فبيّنت كيف كان ﷺ رحيما رؤوفا وخير مرشد للعباد، وأكدت كلامها بقد واللام وتقديم الجار والمجرور في شطري البيت؛ للتأكيد على فضله ﷺ على العباد أجمعين، ولبيان رحمته بالناس كافة، وللإشارة إلى حرصه عليهم، وخوفه عليهم، وكيف كان لهم رحمة، وخير راشد ومعين، وهذا كله إعلاء لشأن المصطفى ﷺ، ورفع لمنزلته ومكانته. ثم ختمت قصيدتها بهذا الدعاء الشامل الكامل، فقالت: "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيًّا وَمَيْتًا" فتُظهر حبها

الكامل، وتعلقها الشديد، ورغبتها الملحة في توجيه الثناء الطيب، والدعاء المحمود الذي يشمل المصطفى ﷺ في كل أحواله، فبدأت بالجملة الخبرية التي تعني الإنشاء؛ إظهارا لحرصها على وقوع الدعاء، وتفاؤلها بحصوله، ورغبتها في تحقيقه، وإبرازا للرضا الذي ناله المصطفى ﷺ من رب العباد.

ثم ظلّلت كلامها وزيّنته بالطباق الذي جمع الرضا للمصطفى ﷺ في حياته وبعد مماته؛ لتكشف من خلال الطباق عن حبها، وتأكيد رغبتها في طلب الدعاء للمصطفى ﷺ ، كما يبرز الطباق حاجة السيدة صفية ﷺ الملحة في تتويج المصطفى ﷺ بأطيب الدعوات، وحرصها على أن يكون الدعاء شاملا له في الحياة والممات، وهذا يدل على صدقها في الدعاء، وتعلقها بالمصطفى ﷺ ، وحبها الشديد له، وطلب الخير الكامل الوافي. وتتجلى براعة التعبير وحسنه؛ في ميل السيدة صفية ﷺ إلى ذِكر حياة المصطفى ﷺ ؛ لتبرز جانب الأسى والحزن والحنين والندم... الذي يحوطها على رحيل خير البرية ﷺ ، وكأنها تنفث في نفسها، وتهمهم في صدرها، وتحدث نفسها عن حياة المصطفى ﷺ التي كانت محاطة بالرضا، ومتسمة بالقبول، ومتصفة ومعممة بالخير والبركات والرضوان من رب العباد. وبهذا يتشابك الطباق في تدعيم الدعاء، وإظهار التعلق، وإبراز الحب، والدعاء بالخير التام للمصطفي ﷺ المُظهر الظفر بالرضا المفضي للجزاء الحسن وهو الجنة. وهذا ما اتضح من خلال الطباق، فهو مع تجميله اللفظ: "فإنه يؤدي غرضا معنويا، حيث يستوعب الحكم كاملا، كما يأتي لعقد مقابلة حسية ونفسية أو زمانية، ومنه ما يكتشف أجزاء القضية ويبرز أطرافها، مما يؤكد أن الطباق من الأمور الفطرية المركوزة في الطباع، إذ الضد أقرب خطورا بالبال عند ذكر ضده" . [1]

(١) البديع رؤية جديدة، د. عبد الله دراز، صـ ١٤.

بينما السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الثانية بعد أن أظهرت حذرها وخوفها من فقْد المصطفى ﷺ ومن مجيء هذا اليوم، وذاك القدر المكتوب، فقالت:

وَكُنْتِ مِنْ حَذَرٍ لِلْمَوْتِ مُشْفِقَةً وَلِلَّذِي خُطَّ مِنْ تِلْكَ الْمَقَادِيرِ!

والبيت يكشف الحب العميق، والتعلق الكامل بالمصطفى ﷺ، ومن ثم انتابها الخوف والقلق والحزن والحذر من مجيء وحلول الفقد، وخاطبت عينها خطاب المستمع الذي يعي ويسمع ويجيب، وذلك على سبيل الاستعارة؛ إشارة منها إلى عِظم الخطب، ومرارة الفادحة، وشدة المصيبة؛ ومن ثم ترتب على ذلك شدة البكاء، وسيلان الدموع، وتدفقها وغزارتها... كما أظهرت ذلك في مستهل القصيدة. وقد زادت الاستعارة حدة ومبالغة؛ انضمام التجريد إليها، حيث جردت السيدة عاتكة ﷺ من العين شخصا آخر، ونفسا أخرى امتلأت بالحذر والخوف والهلع من مجيء هذا اليوم، وذاك القدر المكتوب، وذلك للمبالغة في حزنها، ودموعها التي داهمتها لفراق المصطفى ﷺ .

ثم ختمت قصيدتها بخير الدعاء، وعظيم الثناء، وجزيل الرجاء، فارتكزت أيضا على الأمر المراد به الدعاء في "فَاذْهَبْ حَمِيدًا! جَزَاكَ اللَّهُ مَغْفِرَة" والأمر هنا يحمل مع الدعاء؛ الاستسلام والرضا بما وقع، ومن ثم يكشف عن عمق الإيمان والرضا بالقدر الذي تغلغل في نفس السيدة عاتكة ﷺ، كما يحمل مدى الحزن الذي تملكها، والأسى الذي أحاط بها، والتحسر الذي سيطر عليها، والندم الذي شملها؛ حتى باتت لا حول لها ولا قوة سوى الاستسلام وتوديع المصطفى ﷺ بهذا الدعاء الحسن الجميل العظيم... ، فلا دفع للمقادير، ولا رد للمكتوب، ولا تأخير لقضاء قضاه الله ﷻ وقدّره. وقولها "حَمِيدًا" أي محمودا، ذلك أن "فعيل يقع اسما للفاعل، ويقع للمفعول، فأما الفاعل فمثل رحيم وعليم وحكيم وشهيد، وأما ما كان للمفعول فنحو جريح وقتيل

وصريع" . [1] وهذا يدل على المبالغة في المحامد التي نالها المصطفى ﷺ، ورغبة السيدة عاتكة ﷺ في بيان عظيم الحمد، حتى بلغ درجة عالية فيه، فهو حامد في نفسه ومحمود من الخلق أجمعين.

ثم قالت السيدة صفية ﷺ في قصيدتها السادسة: "وَجَزَاهُ الْجِنانَ يَوْمَ الْخُلُودِ" وهنا تبرز خالص محبتها، وتؤكد منتهى قربها من المصطفى ﷺ وتدعو له بالجنان. والوصل جاء لاتفاق الجملتين في الإنشائية معنى، والتعبير بالماضي يدل على تحقق الجزاء، ورغبة السيدة صفية ﷺ في إثبات وتحقيق خير الجزاء. ويدعم ذلك التعريف والجمع في الجنان؛ لبيان تنعّم المصطفى ﷺ ، وعظيم النعيم الذي حازه، وفوزه بجنان كثيرة. وذِكر يوم الخلود؛ يدل على كمال النعيم، وأوفي الثواب، وأعظم الجزاء.

بينما السيدة عاتكة ﷺ قالت في الثانية: "جزاك الله مغفرة يَوْمَ الْقِيَامَةِ، عِنْدَ النَّفْخِ فِي الصُّوَرِ" ويظهر بناء الكلام على الإيضاح بعد الإبهام؛ لتشويق النفوس وتطلعها إلى ما سيذكر بعد الإبهام. وخصت يوم القيامة بالذكر؛ لبيان عظيم المنزلة التي يتبوأها المصطفى ﷺ في ذلك اليوم الذي تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، ويجعل الولدان شيبا. ثم أوغلت بجملة: "عند النفخ في الصور" للمبالغة في تأكيد المغفرة والسلامة في هذا المشهد العظيم الذي يُصعق فيه من في السموات والأرض.

والسيدة صفية ﷺ في القصيدة الأولى استمرت في دعائها، وبيان عمق حبها، وإخلاصها فيه؛ فكررت الوصل في الشطر الثاني من البيت للاتفاق في الخبرية في: "وَجَزَاهُ الْمَلِيكُ حُسْنَ الثَّوَابِ" وهو دعاء جديد توّجت به كلامها؛ للإشارة إلى حبها للمصطفي ﷺ وكيف أنها ترجو له خير المنزل، وأفضل الجوار، والرحمة والسلام من

---

(١) الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صـ ١٢٤، طبعة/ دار الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية ١٩٩٨م.

رب العباد، وحسن الثواب. والتعبير بالماضي في: "وَجَزَاهُ الْمَلِيكُ" لإفادة تحقق الجزاء وحصوله، والجمل الثلاث بنتها السيدة صفية ﷺ على الخبر المراد به الإنشاء؛ للإشارة إلى عميق حبها للمصطفى ﷺ، ومن ثم هي لم تقل: "وجزاه المليك الثواب" وإنما زادت القيود في المفعول وخصت الحسن من الثواب، فهي تدعو بأحسن الثواب وأعظمه وأعلاه وأوفاه... .

بينما السيدة عاتكة ﷺ في القصيدة الأولى تفوقت على السيدة صفية ﷺ؛ حينما أعقبت الدعاء بإظهار المزيد من الحب والتعلق، وأبدت خالص الحزن، وكشفت عن أثر الفقْد على نفسها، فقالت:

هـلّا فَداكَ المَوْتَ كُلّ مُلعّنٍ شَكْسٍ خلَائقُهُ لئيمُ المَحْتِدِ؟

والبيت يكشف عن زفرات الحزن، وتأجج الفراق، وألم الرحيل، وقولها: "هلا فداك" للتمني المشوب بالإلحاح الشديد، والرغبة القوية في وجود من يفتدي المصطفى ﷺ من الموت، وهذا يدل على شدة الحب، وقوة التعلق، وكمال التمني في الطلب. كما يجسد التمني نفسية السيدة عاتكة ﷺ التي أصبحت كأنها تبحث وتفتش وتنقب عن ذاك الذي يفتدي المصطفى ﷺ من الموت، وهذا من تعلق هذا الأمر بقلبها، وشدة شوق نفسها إليه؛ خوفا على فراق المصطفى ﷺ، ورغبتها وحبها في وجود الفداء له. يقول الدكتور. محمد أبو موسى: "إن المعاني التي نعدها من باب التمني ذات طبيعة خاصة، فهي من المعاني التي تتعلق بها القلوب وتشتاقها". (١) وقد تآزر مع التمني في بثّ رغبة الشاعرة، وتوقها وشوقها لأمر الفداء؛ تقديم المفعول على المسند إليه في: "فَداكَ المَوْتَ كُلّ مُلعّنٍ" لكمال الاهتمام بأمر الفداء، وتسليط العناية على أنه المعنِي من طلبها وتمنيها، وشدة تغلغل الأمر في داخلها،

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية، تأليف: أ. د. محمد أبو موسى، صـ١٩٥.

والإشارة إلى ما يجيش في نفسها من رغبة في دفع الموت عن المصطفى ﷺ؛ مما يدل على شدة الحزن، وقوة الأسى، وزيادة التحسر والتندم والأسى...على فقْد ورحيل المصطفى ﷺ .

ثم زادت السيدة عاتكة ﷺ في معناها؛ حينما قيدت المسند إليه بجملة من القيود في: "كُلّ مُلعّنٍ شَكْسٍ خلَائقُهُ..." وتخيرها لفظ العموم؛ يبرز ما يجيش في نفسها من رغبة قوية في حصول الفداء، والفداء لا تفرده بشخص بعينه؛ بل كل من يتصف بهذه الصفات ينبغي أن يكون فداء للمصطفي ﷺ، وهذا يدل على استعظامها لوفاته، وحيرتها الشديدة، ودهشتها العجيبة من أمر فراق المصطفى ﷺ. والتنكير في: "كُلّ مُلعّنٍ" يتناغم مع لفظ العموم؛ للتأكيد على أنها تعني كل من اتصف بتلك الصفات؛ حُق عليه الفداء والموت.

وقد نسجت كلامها بخيوط الإيضاح بعد الإبهام حين قالت: "هلّا فَداكَ المَوْتَ" ثم أزالت الإبهام بما أعقبته بعده من تفصيل ووصف لكل ملعن ذميم الخُلق لئيم الطبع، وهذا يزيد من تأكيد كلامها، وتمكنه في النفس، وتطلعها واستشرافها لمعرفته والوقوف عليه، ثم تأتي الأوصاف لتزيد الكلام تأكيدا، وتعصف بالمعنى تقريرا، وذلك يتناسب مع رغبة الشاعرة المتوقدة أسى وحزنا وندما... على فراق المصطفى ﷺ ، وهذا ما تجلى بفضل الإيضاح بعد الإبهام. ذلك أن "المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت النفس إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن، وكان شعورها به أتم" . [1]

(١) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، أ. د. عبد المتعال الصعيدي، صـ ١٣٣، طبعة/ مكتبة الآداب، طبعة/ سابعة ١٩٩٠ م.

الخاتمة

الحمد لله على ما يسر وأعان، والصلاة والسلام على النبي العدنان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وجمعني والمسلمين معهم في ظلال الجنان، **وبعد**:ـ

فهذا ما هداني الله ﷻ إليه في الكشف عن أثر فقْد المصطفى ﷺ في نفس عمتيه: صفية، وعاتكة ﷺ بنتي عبد المطلب، ولا أدعي الكمال في عملي وأنني أحطت بكل ما قصدا بيانه؛ وإنما هذا غيض من فيض، وذاك عمل يحتاج إلى أن تعقبه دراسات أخرى، فكل له ذوقه وخاصيته، وسيهدي الله ﷻ غيري وسيقف على ما لم أقف عليه، فإنما العلم هدى وفتح يهبه الله ﷻ لمن يشاء.

وفي الخاتمة أكشف عن أهم النتائج المستفادة من هذه الدراسة، وهي كالآتي:ـ

أولا ـ ظهر اعتماد الصحابيتين على الأسلوب الإنشائي من أمر ونداء واستفهام... ، وقد تصدّر الأمر تلك الأساليب؛ فجاء في ثلاثة وعشرين موضع جميعها في حث العين على البكاء، وطلب الدموع بغزارة؛ لإبراز أثر الفقْد، ووقْع المصيبة، وللتنفيس على النفس، ونقل كل ما يجول داخلها؛ لعل الدموع تخفّف. وجاء النداء في المرتبة الثانية في عشرة مواضع جميعها في نداء العين أو نداء القريب للبكاء مع الشاعرتين؛ ليكشفا عما هما فيه من ضيق مقام، وحزن وأسى، فالوقْع شديد على النفس، والحدث جلل، والمصيبة عُظمى، كما يشير النداء إلى حاجة الشاعرتين إلى البكاء، وإلى دوامه واستمراره، ومدى تأجج عاطفتهما المتحسرة، وما مسّ مشاعرهما من حزن، وما حدث في وجدانهما من لهيب ومضاضة وألم... . ثم جاء الاستفهام في المرتبة الثالثة في ثلاثة مواضع في الاستفهام عن الذي سيرعى اليتامى أو سيتكفل بالأسارى أو من هم في ضيق وكرب؛ ليبرزا الشاعرتين من خلاله مكانة المصطفى ﷺ ورحمته وعطفه ورعايته لكل أسير أو محتاج أو مكروب، وأن الدنيا

خلت بعده ﷺ من الذي يرعى هؤلاء.

ثانيا ــ آثرت الصحابيتان في ذِكر وتعديد صفات المصطفى ؛ استخدام الفصل بالواو تارة والوصل بدون الواو تارة أخرى في أربعة مواضع؛ رغبة منهما في بيان كمال اتصافه ﷺ بصفات وُجدت مكتملة فيه جملة واحدة، وصفات أخرى كانت فيه ﷺ على حِدة؛ وكل هذا يظهر مكانته ومنزلته ﷺ في نفس الشاعرتين.

ثالثا ــ تبيّن عند الشاعرتين تنوع استخدام الأفعال في التعبير بالمضارع تارة والماضي تارة أخرى، وذلك في تسعة مواضع، تصدّرها المضارع في سبعة منها، جُلها في المعاني التي تدل على البكاء من الشاعرتين، أو من حال الأرامل واليتامى والشيوخ الذين كان يرعاهم المصطفى ﷺ؛ ليُظهر المضارع تجدد البكاء وحدوثه واستمراره من قبل الباكين. وهذا يدل على شدّة ما ألمّ بهم من خطب ومصيبة وفاجعة، وأن بكاءهم لا ينقطع. أما الماضي فقد جاء في موضعين في بيان ما أصاب السيدة صفية من أرق وشيب وأنه ثبت وتحقق وتمكّن منها؛ مما يدل على أن الفاجعة تمكنت أشد تمكّن من نفسها، وداهمتها وأحزنتها وأحاطت بها فشيّبتها قبل ميعادها وجعلت الأرق والقلق والاضطراب ملازما لها من أثر رحيل المصطفى ﷺ .

رابعا ــ كان للتعليل دوره البارز في إظهار المعنى وعرضه وتجليته في صورة واضحة، فجاء في ثلاثة مواضع جميعها في بيان العلة من البكاء؛ لبيان منزلة المصطفى ﷺ، وإظهار مكانته، ولجعْل البكاء حقا واجبا على رحيل المصطفى ﷺ، وتقرير أمر البكاء في النفوس وتأكيده. ذلك أن التعليل في المعاني يحتفي بها ويقررها في النفوس، فيثبتها معللة "من أجل أن إثبات الشيء معللاً آكَدُ في النفس من إثباته مجردا من التعليل" . (١)

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي ٣/ ١٢٥، طبعة/ المكتبة العصرية، بيروت، طبعة/ أولى ١٤٢٣هـ.

خامسا ـ كان للاعتراض دوره البارز عند الشاعرتين، فقد جاء في ستة مواطن، اثنان منهما في خطاب العين وحثها على بقاء الدمع، واستمراره طوال الدهر؛ للإشارة إلى تملّك الحزن، وشدة الفراق، ومن ثم حق ووجب على العين أن تجود بدمعها من دون توقف أو انقطاع. وجاءت باقي مواطن الاعتراض في مدح المصطفى ﷺ والإشادة به، والتركيز على تفضيله على الخلق أجمعين، وبيان أنه خير العباد، ونور البلاد، وأكرم مخلوق في البرية جمعاء.

سادسا ـ امتلكت الشاعرتان موهبة فائقة وقدرة عجيبة في توظيف ظاهرة التكرار؛ فساعدهما على تكرار الأنّات، وسكب الأحزان، ونشر الدموع، وبث الآلام، ونقل الأوجاع... التي رغبا في إخراجها واسترسالها ودفعها ونشرها... . كما أعان التكرار الشاعرتين في حمْل الكثير من الاستجابات المطلوبة التي قصدا أن يشاركن فيها من حولهم؛ لأن الحزن عمّ على الجميع، وخيم على كل البشر، والوجع داهمهم، والفاجعة نزلت عليهم أجمعين بعد رحيل المصطفى ﷺ .

وبعد:ـ فالحمد لله على توفيقه لي، وأسأله أن ينفعني وينفع أولي العلم بهذه الصفحات التي ماهي إلا محاولة من باحث يشق طريقه نحو السير على درب علمائه ومشايخه، وقد وضع فيها ما أعطاه الله ﷻ من فهم، وما يسره له من علم، فإن كان قد وُفق فبفضله ـ سبحانه ـ وعونه، وما كان من سهو أو زلل، فحسبه أنه بشر.

ثبت المصادر والمراجع

١- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، أ. د. صباح دراز، طبعة/ مطبعة الأمانة، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٨٦ م.

٢- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩١ م .

٣- الإصابة في تمييز الصحابة لعز الدين بن الأثير، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة/ نهضة مصر، القاهرة ١٩٧١ م.

٤- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدين، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى ٢٠٠٢ م.

٥- البديع رؤية جديدة، د. عبد الله دراز، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٦- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، أ. د. عبد المتعال الصعيدي، طبعة/ مكتبة الآداب، طبعة/ سابعة ١٩٩٠ م.

٧- البلاغة ذوق ومنهج" فن الصورة"، د. عبد الحميد العبيسي، طبعة/ مطبعة حسان، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٨٤. ١٩٨٥م.

٨- البلاغة والتحليل الأدبي، د. أحمد أبو حاقة، طبعة/ دار العلم للملايين، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٨٨م.

٩- بيان إعجاز القرآن للخطابي، تحقيق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام، طبعة/ دار المعارف، مصر، طبعة/ ثالثة ١٩٨٦م.

١٠- البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة/ مؤسسة الخانجي، القاهرة، طبعة/ رابعة ١٣٩٥هـ.

١١- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، طبعة/ الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤هـ.

١٢- تفسير ابن عرفة، محمد بن عرفة التونسي المالكي، تحقيق: د. حسن المناعي، طبعة/ مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، طبعة/ أولى١٩٨٦م.

١٣- التكرير بين المثير والتأثير، عز الدين على السيد، طبعة، دار الطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٧٨م.

١٤- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، أ. د . محمد أبو موسى، طبعة/ مكتبة وهبة ، طبعة/ تاسعة ٢٠١٤ م.

١٥- دراسة في البلاغة والشعر، أ. د . محمد أبو موسى، طبعة/ مكتبة وهبة، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩١م.

١٦- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ ثالثة ١٩٩٢م .

١٧- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، أ. د. محمد أبو موسى، طبعة/ مكتبة وهبة، القاهرة، طبعة/ ثانية ١٩٨٧ م.

١٨- الرثاء، د. شوقي ضيف، طبعة/ دار المعارف، القاهرة، طبعة/ رابعة د. ت.

١٩- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، تحقيق: علي محمد البجاوي، طبعة/ دار الجيل، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٩٢م.

٢٠- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق وشرح: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي ١/ ١٦٥، طبعة/ دار المعرفة، بيروت.

٢١- الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٩٠م.
٢٢- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للعلوي، طبعة/ المكتبة العصرية، بيروت، طبعة/ أولى ١٤٢٣هـ.
٢٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رشيق، تحقيق: محمد محيي الدين، طبعة/ دار الجيل، بيروت، طبعة/ خامسة ١٩٨١ م.
٢٤- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، تحقيق: د. عبد العزيز بن ناصر المانع، طبعة/ دار العلوم للطباعة والنشر، السعودية ١٩٨٥م.
٢٥- عيار الشعر لابن طباطبا العلوي، تحقيق: عباس عبد الستار، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٨٢ م.
٢٦- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة/ دار الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد، السعودية ١٩٩٨م.
٢٧- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة/ دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة/ ثالثة ١٩٩٧ م .
٢٨- معجم تاج العروس، ت. محمد بن عبد الرازق، الملقب بمرتضى الزبيدي، طبعة/ دار الهداية.
٢٩- معجم تهذيب اللغة، ت. أبو منصور الهروي، تحقيق: محمد عوض مرعب، طبعة/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة/ أولى ٢٠٠١م.
٣٠- معجم جمهرة اللغة لابن دريد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر/ دار العلم، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٨٧ م.
٣١- معجم القاموس المحيط للفيروز آبادي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، إشراف. محمد نعيم العرقسوسي، طبعة/ مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة/ ثامنة ٢٠٠٥ م.

٣٢- معجم كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، طبعة/ دار ومكتبة الهلال.

٣٣- معجم المحكم والمحيط الأعظم لأبي الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، طبعة/ دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة/ أولى٢٠٠٠ م.

٣٤- معجم المخصص لابن سيده، طبعة/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة/ أولى ١٩٩٦م.

٣٥- معجم لسان العرب، ت. جمال الدين بن منظور، طبعة/ دار صادر، بيروت، طبعة/ ثالثة ١٤١٤هـ.

٣٦- معجم مجمل اللغة لابن فارس، تحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، طبعة/ مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة/ ثانية ١٩٨٦ م .

٣٧- معجم مختار الصحاح، ت. أبو بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، طبعة/ المكتبة العصرية، بيروت، طبعة/ خامسة ١٩٩٩م.

٣٨- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، طبعة/ دار الفكر ١٩٧٩ م .

٣٩- مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي ٢٩/ ٥٢٨، طبعة/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة/ ثالثة ١٤٢٠ هـ.

٤٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجني، طبعة/ دار الغرب الإسلامي، بيروت.

٤١- نمط صعب ونمط مخيف، د. محمود شاكر، طبعة/ مطبعة المدني، القاهرة، طبعة/ أولى ١٩٩٦م.

٤٢- الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي البجاوي، طبعة/ مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة.